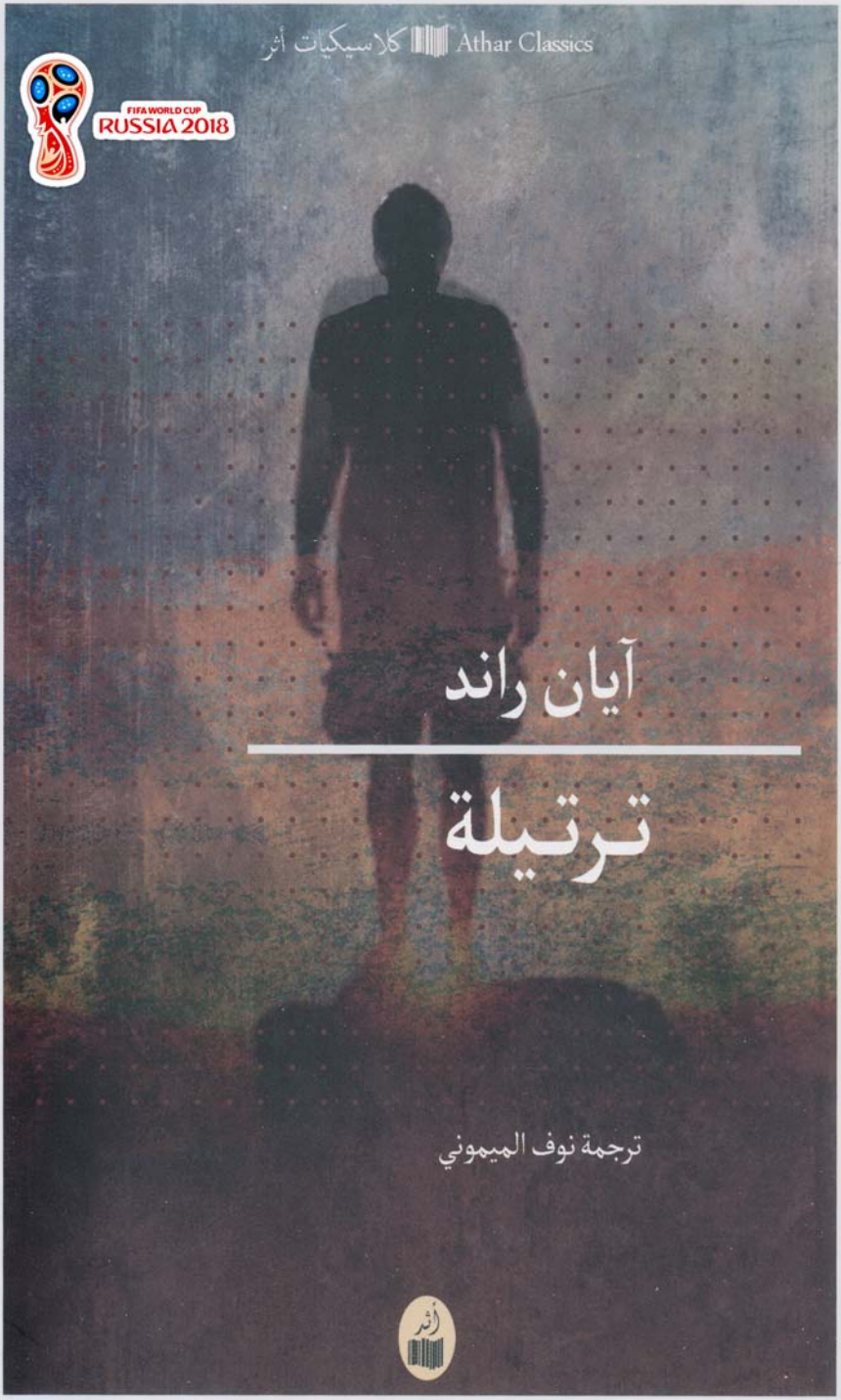

كلاسيكيات أثر Athar Classics

آيان راند

ترتيلة

ترجمة نوف الميموني

أثر

ترتيلة

رواية

آيان راند

ترجمة: نوف الميموني

ترتيلة

ترتيلة/ رواية
آيان راند
ترجمة: نوف الميموني

الطبعة الأولى 1439 / 2018
ردمك 978-284409-762-0

Copyright © 1938 by Ayn Rand. Introduction copyright ©Leonard Peikoff and the Estate of Ayn Rand, 1995, as per the original English language edition.
All rights reserved

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مقدمة

بقلم: لينارد بيكوف[1]

اختارت آيان راند كلمة «ذات» عنوانًا مبدئيًا لهذه الرواية القصيرة. فذكرت في إحدى مراسلاتها: «استعملت الكلمة بمعناها الحرفي الدقيق. لا أقصد أن تكون رمزًا للنفس، ولكنها الذات الإنسانية تحديدًا وفعليًا»[2].

تعرّف آيان راند الذات الإنسانية بأنها ما يكنّه عقل الإنسان، بما في ذلك قدراته الفكرية ومقدرته على إعمال المنطق. كل الخصائص الروحانية المميزة لديه مستقاة من هذه المقدرة، فمثلاً، المنطق (أي قرارات الإنسان وأحكامه) هو ما يولّد مشاعر الإنسان، والمنطق هو الذي يمتلك المشيئة، وهي القدرة على الاختيار.

---

1 - فيلسوف أمريكي وأحد المختصين بالفلسفة الموضوعانية التي أسّستها آيان راند-المترجمة.

2 - كما جاء في رسالة إلى ريتشارد دي ميل في نوفمبر عام ١٩٤٦.

لكن المنطق ملكية خاصّة بالفرد، فلا يُوجد ما يُسمّى العقل الجماعي.

تحوي كلمة «ذات» جميع النقاط السابقة في مفهوم واحد فريد؛ فيُشار بالذات إلى العقل (وقدراته) بصفته ملكية فردية. فالذات إذًا هي ما تكوّن الهوية الجوهرية للإنسان. كما يعرّف أحد القواميس الكلمة بأنها: «الأنا، أو شخص الإنسان؛ هي الإنسان بتفكيره وإحساسه وإرادته وتمييزه لنفسه عن ذوات الآخرين، وعما يفكّر به»[1].

وواضحة هي الأسباب التي تجعل آيان راند تبجّل ذات الإنسان، فهي بذلك تنتصر (وإن كان بشكل مضمر) للمبادئ الأساسية لفلسفتها ولأبطالها: المنطق، القيم، المشيئة، الفرديّة. وفي المقابل فإن خصوم أبطالها لا يفكّرون، ولا يحكّمون عقولهم، ولا يشاؤون بإراداتهم المحضة؛ هم مجرد مجترّون لأفكار الآخرين، مسلّمون قيادهم إليهم. وبتسليمهم لعقولهم فهم قد فقدوا ذواتهم.

كيف ترتبط هذه الرواية القصيرة عن ذات إنسان، والمنشورة أول مرة في إنجلترا عام ١٩٣٨م، برواية **المنبع** (١٩٤٣م)؟ كتبت راند عام ١٩٤٦م أن **ترتيلة** بمثابة «الخطوط الأولية التي يرسمها الفنانون للوحات فنية مهمة سيعملون عليها في المستقبل. كتبتُ **ترتيلة** بينما كنت أكتب **المنبع**؛ ففيها الموضوع نفسه، والروح والغاية، وإن كانت في صياغة مختلفة»[2].

وقد حذّر ريتشارد دي ميل راند في أحد خطاباته أن ثمة أناس يرون

1- قاموس راندم هاوس للغة الإنجليزية، طبعة عام ١٩٦٨.

2- في رسالة إلى لورين برويت في سبتمبر عام ١٩٤٦.

أن كلمة ذات «لها صدى شديد الوقع، بل إنها قد تُعدّ منافية للأخلاق». فكانت إجابتها: «لا شك لدي بوجود هؤلاء. وإلا فضد مَن تظنني كتبتُ هذا الكتاب؟»[1]

وبرغم من أن كلمة ذات لها دور محوري في النص، فإن راند غيّرت عنوان الرواية إلى **ترتيلة** عندما قرّرت نشرها. ولم يكن قرارها نابعًا من رغبةٍ في تلطيف أثر الكتاب، بل كانت خطوة تتخذها آيان راند في كل رواياتها. فجميع العناوين المبدئية لأعمالها الروائية صريحة، مباشرة، تفتقد الإحساس، توضّح موضوع الكتاب بتسمية واضحة، كي تُبقي تركيزها على المحور ثابتًا أثناء الكتابة. لكن هذه العناوين لا تصلح للنشر، لأنها تفشي حبكات الروايات للقراء بفجاجة وقبل الأوان المناسب. فكانت تختار عناوينها النهائية بحيث تظل تحمل معاني المحاور الرئيسية للكتاب، ولكن على نحو مثير غير مباشر؛ عناوينها النهائية تستفز القارئ وتدعوه إلى اكتشاف المعنى بنفسه في الكتاب. (ومثال آخر على هذا هو تغييرها اسم **الإضراب إلى أطلس يهز كتفه**).

عدّت راند **ترتيلة** منذ بدايتها قصيدة تبجيل للذات الإنسانية. فلم يكن عسيرًا بالتالي تغيير العنوان المبدئي، والانتقال من «ذات» إلى «قصيدة تبجيل»، وأخيرًا إلى «ترتيلة»، تاركةً الموضوع المبجّل مبهمًا حتى يصل القارئ إلى إدراكه. ذكرت راند في رسالة: «الفصلان الأخيران هما الترتيلة الحقيقية»[2]. أما ما يسبقها فهو مجرد تصاعدات في الأحداث تسوق القارئ إليها.

1- كما جاء في رسالة إلى ريتشارد دي ميل في نوفمبر عام ١٩٤٦.

2- في رسالة إلى لورين بروبت في أكتوبر عام ١٩٤٦.

وفي اعتقادي أن ثمة سببًا آخر لاختيار كلمة ترتيلة (بديلةً عن «قصيدة تبجيل» أو «احتفاء» مثلاً)، وهو أن للترتيلة أبعادًا دينية، كما ينصّ معناها الثاني في القاموس على أنها «مقطوعة موسيقية صوتية مقدّسة، تلحّن كلمات مأخوذة عادةً من الكتاب المقدّس»[1]. هذا لا يعني أن آيان راند كانت تعدّ كتابها نصًا دينيًا، بل إن العكس هو الصحيح. وقد وضّحت هذا في مقدمة الطبعة الخامسة والعشرين من كتابها المنبع. فقالت في سياق احتجاجها على احتكار الشرائع الدينية للمبادئ الأخلاقية:

> كما سبق الدين إلى حيازة الأخلاق، وقلب النظم الأخلاقية ضد الإنسان، فإنه كذلك استولى دون حق على أسمى المفاهيم الأخلاقية في لغاتنا، فاجتثّها من هذه الأرض ورفعها بعيدًا عن متناول الإنسان. فصار «التبجيل» يعني عادةً حالة شعورية تتأتّى من التأمل في ما وراء الطبيعة. وكلمة «عبادة» تعني التجربة الحسية التي تتضمن الولاء والتسليم التامّين لشيء أعلى من البشريّ. وأصبح «التعظيم» يعني الشعور بإجلال مقدّس لا يحسّه المرء إلا راكعًا. أما «مقدّس» نفسها فتعني أجلّ مما يبلغه تفكير البشر، ومتعاليًا عن هذه الدنيا. وغيرها.
>
> لكن هذه المفاهيم تسمّي أيضًا مشاعر حقيقية ليس لها أبعاد فوق الطبيعية على الإطلاق؛ فالبشر يعرفون هذه المشاعر ويدركون أثرها الذي يسمو بأرواحهم وينتشون

---

1 - قاموس راندم هاوس للغة الإنجليزية، طبعة عام ١٩٦٨.

بها، دون الحاجة إلى تحقير النفس كما تأمر التعريفات الدينية. فما هو إذًا مصدر هذه المفاهيم ومرجعها في الواقع؟ مصدرها هو كامل النطاق الحسّي الصادر عن إيمان الإنسان بفضيلة أخلاقية...

وهذا المستوى السامي من الإحساس الإنساني هو ما يجب أن يُستردّ من مكامن الصوفية العكرة، وأن يُوجّه إلى وعائه الصحيح وهو الإنسان.

وهذا المعنى، بهذا التعريف والنيّة، هو ما تصوّرته وعرّفته بالحياة التي وصفتها في المنبع على أنها «عبادة الإنسان»[1].

وللسبب نفسه اختارت آيان راند مفهوم «ترتيلة» الجمالي الخُلقي عنوانًا. فهي باختيارها لا تستسلم للرؤى التصوّفية، بل تشنّ الحرب عليها. باختيارها استردّت للإنسان، وذات الإنسان، الاحترام المقدّس الذي لا ينبغي تقديمه للسماء، بل للحياة في هذه الأرض. إن عبارة «ترتيلة للذات» تحمل تجديفًا لآذان المتورّعين، لأنها توحي أن التعظيم لا يُصرف للرب، إنما للإنسان، وإلى كينونته الأنانية الجوهرية المطبوع عليها، التي تتيح له معايشة الواقع والنجاة من أقداره.

مرّت في التاريخ البشري شخصيات مولعة بذواتها، كما عرف التاريخ قدرًا لا بأس به من العابدين كذلك. فكان المولعون بالذات عامّةً «واقعيين» (على منهج واقعية هوبس)، يبغضون النظم الأخلاقية،

---

1 - مقدمة آيان راند في الطبعة الخامسة والعشرين من رواية المنبع، صفحة ٩.

أما العابدين، بحسب تعبيرهم عن أنفسهم، فهم خارج هذا العالم المحسوس. فكان الصراع بين الفئتين مثالاً على الانشقاق بين الحقائق/ القيم الذي ابتُليت به الفلسفة الغربية قرونًا طويلة، حتى جعل الحقائق بلا معنى، والقيم بلا أساس. إن مفهوم آيان راند المتصوَّر في «ترتيلة للذات» يدحض هذا الانشقاق المهلك. إن فلسفتها الموضوعانية توفّق بين الحقائق والقيم، كما في هذا المثال، حيث طبيعة الإنسان الفعلية والتبجيل والاحترام العَلماني لها.

يحدّد موضوع **ترتيلة** صنفها الأدبي. وهذه الرواية نوع جديد لم تطرقه آيان راند من قبل، لا في الشكل ولا في الأسلوب (إنما المحتوى فهو يقع ضمن الموضوعات التي تكتب فيها راند عادةً). وكما ذكرت راند فإن في **ترتيلة** حكاية، لكنها بلا حبكة، أي أنها لا تتضمن تسلسلاً متصاعدًا في أحداثها يقود إلى الذروة ثم إلى الحل. حتى إن أقرب عنصر للذروة في **ترتيلة**، وهو اكتشاف البطل لكلمة «أنا»، لا يمكن أن يُعدّ تصرفًا وجوديًا، بقدر ما هو حدث داخلي، وعملية إدراكية وقعت إلى حد ما بمحض المصادفة (أي أن الأحداث الأولى في الرواية لم تفضِ بالضرورة إلى وقوعها)[1].

ولهذا فإن **ترتيلة** ليست أفضل مثال على منهج راند الفني المعتاد، الذي أسمته «الواقعية الرومانسية». **فترتيلة** تختلف عن بقية رواياتها في كونها تفتقد الخلفية الحديثة الواقعية، وتخلو من أي محاولة لإعادة تصوير التفصيلات الحسّية أو الحوارية أو النفسية. فأحداث القصة تقع في مستقبل بعيد بدائي، وتُحكى بمفردات بسيطة شبيهة بالعبارات

1- ذكرت راند هذا في مراسلاتها الشخصية مع بيكوف.

الإنجيلية، بما يتناسب مع ذاك العالم وذاك العصر. في رسالة كتبتها راند إلى سيسيل دي ميل وصفت الكتاب بأنه «خيال درامي»[1]. وفي إجابة لها عن سؤال طرحته روز ويلدر لاين صنّفته رسميًا على أنه «قصيدة»[2].

وعندما طُرحت فكرة نقل **ترتيلة** إلى وسائل إعلامية أخرى، تمسّكت راند بتصوّرها للرواية، فكتبت في رسالة إلى والت ديزني عام ١٩٤٦ أنه إن كان من الممكن تصوير الرواية سينمائيًا، «فإنني أودّ أن أراها مرسومة برسومات حية، لا مجسّدة بممثلين وممثلات»[3].

بعد ذلك، وفي منتصف الستينيات كما أتذكر، تلقّت طلبًا من رودلف نوريف لتصميم مسرحية باليه مستوحاة من **ترتيلة**. وقد دأبت راند على رفض هذه الطلبات، إلا أن طبيعة **ترتيلة** المميزة (وبسبب إعجابها الشخصي برقص نوريف) جعلها تبدي حماسًا فائقًا للفكرة. (ولكن للأسف لم تُصوّر **ترتيلة** في السينما ولا في مسارح الباليه).

ما نقصده هو أن الرسوم المتحرّكة أو إيقاعات راقصي الباليه هي أبلغ تمثيل للخيال، لكنها قد تفشل في تصوير روسيا السوفيتية أو صراعات رورك أو إضراب المفكرين[4].

رسمت آيان راند ملامح **ترتيلة** أول مرة في بدايات العشرينيات (أو قبل ذلك ربما)، وكانت تنوي كتابتها على شكل مسرحية. كانت راند

1- في رسالة إلى سيسيل دي ميل في سبتمبر عام ١٩٤٦.

2- في رسالة إلى روز ويلدر لاين في يوليو عام ١٩٤٦.

3- في رسالة إلى والت ديزني في سبتمبر عام ١٩٤٦.

4- هاورد رورك هو بطل رواية المنبع، والإضراب إشارة إلى أحد أحداث رواية أطلس يهز كتفه. المترجمة.

في ذلك الوقت مراهقةً تعيش في روسيا السوفيتية. ناقشت تطورات العمل بعد ذلك بأربعين عامًا في إحدى مقابلاتها، فقالت:

كنت أتصوّر القصة مسرحيةً عن مجتمع جمعيّ في المستقبل، حيث فَقَد أفراده كلمة «أنا». فكانوا يخاطبون بعضهم بكلمة «نحن»، وكانت ذات تفاصيل متشعبة وشخصيات كثيرة. أعتقد أنّي قسمتها إلى أربعة فصول. أحد التفاصيل التي أتذكرها عن الفكرة الأولية هي أن الشخصيات لم تحتمل المجتمع. فكان من المألوف أن يصرخ أحدهم، ويصيبه الجنون أثناء الملتقيات الجمعية التي يعقدونها. وقد أبقيت في النسخة النهائية هذه اللمسة عندما وصفت الأشخاص الذين يصرخون في الليل[1].

لم يكن الهدف الأساسي من المسرحية معارضة النظام الروسي:

لم أسعَ إلى الانتقام من ثقافتي الأم. فلو كانت تلك نيتي لوجدتني أكتب قصصًا تقع أحداثها في روسيا. أردت أن أمحو ذاك العالم تمامًا؛ أعني أنني لا أود إقحام روسيا ولا الارتباط بها بأي شكل. إن شعوري تجاه روسيا في ذلك الوقت كان شعورًا قويًا لازمني منذ طفولتي وقبل وقوع الثورات. كنت أشعر أنها بلد مبهم فاسد خَرِب، ولم أتفاجأ حين اتّخذوا الشيوعية أيديولوجية لهم. شعرت بضرورة رحيلي عنها والبحث عن العالم المتحضّر[2].

---

1 – من مقابلات مسجلة عن سيرة راند، عامي ١٩٦٠–١٩٦١.

2 – من المقابلات التسجيلية السابقة.

هاجرت آيان راند إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٢٦، في سن الحادية والعشرين. لكنها لم تفكّر بكتابة **ترتيلة** هنا، حتى قرأت في مجلة «ساترداي إيفننغ بوست» قصةً تقع أحداثها في المستقبل:

> لم تتطرق إلى موضوع محدد، كل ما ذكرته هو أن حربًا ما دمّرت المدنية، وأن ناجيًا وحيدًا يعيش بين أنقاض مدينة نيويورك، وأنه يبني شيئًا ما. لا حبكة فيها. كانت مجرد قصة مغامرة، لكن ما أثار اهتمامي بها هو أنني أرى أول مرة قصة تخيّلية مطبوعة في الصحافة، بينما كان العُرف هو نشر سلاسل القصص الواقعية فقط. فشدّني نشرهم لقصة كهذه، وقلت لنفسي: إن كانوا لا يمانعون نسج الخيال، فأود إذًا أن أجرّب كتابة **ترتيلة**.
>
> كنت في تلك الأثناء أعمل على حبكة **المنبع**، وكانت أسوأ مرحلة أصارع فيها مخيلتي. لم يكن بوسعي فعل شيء عدا الجلوس والتفكير. منتهى التعاسة! كنت أقرأ عن الهندسة المعمارية، لكن لم أبدأ بالكتابة بعد، وكنت أقتطع وقتًا لكي أكتب شيئًا ما. فكان أن ألّفتُ **ترتيلة** في صيف عام ١٩٣٧[1].

تبعت ذلك معاناة طويلة لنشر **ترتيلة**، لم تكن معاناة أبدًا في إنجلترا لأنها نُشرت فورًا، إنما كانت المعاناة في أمريكا حيث كان المفكرون المفتونون بالشيوعية يعيشون في قمة (أو دَرَك) «العَقْد الأحمر»:

---

1 - من المقابلات التسجيلية السابقة.

كنت أنوي نشر ترتيلة في البداية على شكل قصة أو سلسلة قصصية في مجلة... لكن أظنّ أن وكيلتي قالت إنها لا تناسب المجلات، وكانت غالبًا محقة. أو ربما تكون قد حاولت نشرها في المجلات ولم تنجح. اقترحت عليّ نشرها في كتاب، ولم يخطر هذا الأمر لي مطلقًا. فكان أن قدّمتْها للنشر إلى دار ماكميلان في أمريكا، وهي الدار التي نشرت نحن الأحياء والتي يربطني عقد معها، وإلى دار كاسيل البريطانية. قبلتها كاسيل فورًا، وقال الناشر إنه ليس واثقًا من أن مبيعاتها ستكون عالية، ولكنه أُعجب بها أدبيًا ووصفها بالجميلة، وأنه يريد نشرها. أما ماكميلان فقد رفضوها، وكان ردّهم هو: إن الكاتبة لا تفهم الاشتراكية[1].

مرّت بعد ذلك ثمانية أعوام لم يحدث شيء لترتيلة في الولايات المتحدة. حتى كان عام ١٩٤٥، عندما قرّر لينارد ريد من مطبعة بامفلتييرز، وهي مؤسسة صغيرة محافظة في لوس أنجليس تنشر المقالات غير الأدبية، أن ترتيلة تستحق أن تُعرض على الجمهور الأمريكي. فنشرها ريد في منشور قصير في عام ١٩٤٦. وبعد ذلك نشرت كاكستن، وهي دار محافظة أيضًا ذات انتشار محدود، الرواية في عام ١٩٥٣ في غلاف سميك. وفي عام ١٩٦١، بعد زهاء ربع قرن من كتابتها، أصدرتها «نيو أميركان لايبرري» في كتاب ذي غلاف ورقي بأعداد كثيرة.

وبعد هذه الخطوات البطيئة المؤلمة، أُتيح أخيرًا لبلد الفرديّة التعرّف

1 – من المقابلات التسجيلية السابقة.

على رواية آيان راند عن الفردية. بِيع الآن من **ترتيلة** أكثر من أربعة ملايين نسخة. وقد أعادت راند كتابة الرواية في نسختها الأمريكية. ذكرت في مقدمتها عام ١٩٤٦: «حرّرت وراجعت [القصة] في هذه النسخة، لكني قصرت التعديل على الأسلوب فحسب... لم أضف ولم أحذف أي واقعة من أحداثها... فالقصة باقية كما كانت. أجريت لها عملية تجميل في وجهها، لكني لم أغيّر جوهرها ولا روحها؛ فهذه لا تحتاج إلى أي تجميل»[1].

لم تكن آيان راند راضيةً كل الرضا عن قدراتها الأسلوبية حتى بلغت أواخر الثلاثين من عمرها، حين أجادت اللغة الإنجليزية إجادةً تامة وأتمّت كتابة **المنبع**. كانت إحدى المشكلات التي تواجهها في أعمالها الأولى هي الاستفاضة في التعبير، وقد كانت غير متأكدة أحيانًا، كما أخبرتني مرةً، ما إذا نجحت في إيصال فكرة ما (أو إحساس) بشكل كامل وموضوعي. وبعد عام ١٩٤٣م، حين اكتسبت حذاقة في الفن وطلاقة في الإنجليزية، عادت إلى **ترتيلة** وإلى **نحن الأحياء**، فنقّحتهما بما أملاه عليها نضجها المعرفي.

عندما حرّرت راند **ترتيلة** ذكرت، بعد سنوات، أن أهم ما شغلها هو:

> الدقة والوضوح والإيجاز، وحذف جميع الصفات المنمّقة والمطنبة. الحقيقة أن محاولة الكتابة بهذا الأسلوب المحاكي للكتابة القديمة كانت بالغة الصعوبة. فكانت المبالغة ظاهرة في بعض الفقرات. ورأيت أنني قد ضحيّت

---

١ - مقدمة طبعة ترتيلة عام ١٩٤٦، الصفحة ٥.

في بعض المواضع بالمحتوى لأخدم الأسلوب، والسبب هو لأنني ببساطة لم أكن أعرف كيف أقول الفكرة. ولكن لما أعدت كتابتها بعد فراغي من المنبع، كنت قد أجدت أسلوبي إجادة تامة، وعرفت كيف أوقع الأثر نفسه ولكن باستعمال أساليب بسيطة ومباشرة، دون المبالغة في محاكاة العبارات الإنجيلية[1].

تعلّمت آيان راند الكثير عن منهجها الفني (وعن أمور عديدة أخرى، منها طرائق تطبيق فلسفتها) خلال أعوامها الفكرية الطويلة. ولكن في مكنونها وذاتها لم تتغير راند قط. فالطفلة التي تخيّلت ترتيلة في روسيا تمتلك الروح نفسها التي تسكن المرأة التي حرّرتها بعد ثلاثين عامًا، والتي تفخر بكتابتها بعد خمسة وثلاثين عامًا من ذلك.

وربما يكون ما ذكرته آيان راند في استمارة النشر التي أجابت عن أسئلتها عام ١٩٣٦ عند نشر كتابها **نحن الأحياء**، وقبل عام واحد من تأليف **ترتيلة**، مثالاً بسيطًا على رسوخ معتقداتها. فقد طلبت الاستمارة من المؤلفين التعبير عن فلسفتهم. بدأت إجابتها، وهي في الحادية والثلاثين، كالآتي: «أن أجعل حياتي سببًا لوجودها. أعرف ما أريد حتى بلوغي المئتين. اعرفْ ما تريده في الحياة واسعَ لحيازته. أنا أعبد الأفراد لما يمتلكون من إمكانات فردية خالصة، وأمقت البشرية لأنها تفشل في تحقيق هذه الإمكانات...»[2].

عندما أقرأ صفات آيان راند في كتاباتها الأولى من عام ١٩٣٦م

---

1 - من المقابلات التسجيلية السابقة.

2 - مقابلة مع آيان راند في يونيو عام ١٩٣٦.

وقبل ذلك، فإنه يتبادر إلى ذهني تعليق على لسان أوستن هيلر يصف فيه صديقه رورك:

> يتراءى لي أحيانًا أنه الوحيد منّا الذي استطاع الخلود. ولا أعني بالخلود الشهرة، ولا أعني أنه لن يموت يومًا. لكنه يعيش الخلود. أعتقد أنه هو معنى الخلود الحقيقي. أنت تعرف كم أن الناس يتوقون إلى الأبدية. لكنهم يموتون في كل يوم من أيام حياتهم... إنهم يتغيرون، وينكرون، ويناقضون، ويسمّون ذلك النضج. وفي النهاية لا يبقى شيء، لا شيء مما كانوه لم يتبدل أو لم يخونوه؛ كأن الإنسان لم يكن كيانًا قط، إنما مجرد صفات متوالية، تظهر وتختفي، في كتلة غير متشكّلة. كيف يطمحون إلى دوام لم يحفظوه ولو لحظة واحدة؟ لكن هاورد، أستطيع أنّ أتصوّره خالدًا إلى الأبد[1].

وأنا أتصوّر آيان راند خالدة أيضًا. فقد كانت خالدة بالمعنى المفسّر أعلاه، وقد حقّقت الشهرة علاوةً على ذلك. وأتوقع أن تظلّ كتبها حية طالما أن الحضارات باقية. وربما تنجو من عصور مظلمة أخرى، إن جاءت، ولو وقعت، كما نجا «المنطق» لأرسطو.

لينارد بيكوف

إرفاين، كاليفورنيا

أكتوبر، ١٩٩٦

---

1 - المنبع، صفحة ٤٥٣.

الفصل الأول

كتابة هذا الكلام إثم. الإثم هو التفكير بكلمات ما فكّر بها آخرون، وتدوينها في ورق لن يراه آخرون. هذه رذيلة وفساد. كمثل تكلّمنا بحديث لا يقع على آذان بشر سوانا. ونحن نعلم يقينًا ألا خطيئة أكبر من أن يفكر الإنسان أو يعمل وحده. انتهكنا القوانين. ففي القانون أنه لا تجوز الكتابة ما لم يأمر مجلس المهن بذلك. نسألهم المغفرة!

وما كانت تلك خطيئتنا الوحيدة، بل أتينا جريمة أخبث لا نعرف لها اسمًا. ولا ندري أي عقاب سيحل علينا إن عُرفت، وما من جريمة مثلها عُرفت في ذاكرة البشر ولا قوانين كُتبت عن جزائها.

المكان هنا مظلم. ولهب الشمعة لا يحرّكه هواء. ما من شيء يتحرك في هذا النفق سوى يدنا على الورق. نحن وحدنا هنا تحت الأرض. وحدنا كلمة مخيفة. تخبرنا القوانين أنه لا يجوز لإنسان أن يعتزل البشر، في أي حين ولأي سبب؛ لأن هذه هي أعظم معصية وأصل كل شر. لكننا تجاوزنا قوانين كثيرة. لا شيء هنا سوى جسدنا الواحد، ومن العجب أن نرى ساقينا ممددتين على الأرض، وظل رأسنا يهيم على الحائط.

الجدران مشروخة والماء الأسود يلتمع كالدم ويسيل في الصدوع في مجارٍ غائضة بلا صوت. سرقنا الشمعة من مؤونة دار الكنّاسين. وإن عُرفت جريمتنا فجزاؤنا عشرة أعوام في مقر الحبس التأديبي. ولكن هذا لا يهم، إنما ما يهم هو أن الضوء نادر ويجب ألا نهدره في الكتابة في حين أن حاجتنا إليه في عملنا الذي هو جريمتنا أمسّ. لا شيء أعزّ من عملنا، سرّنا، شرّنا، عملنا العظيم. لكن لا مناص من الكتابة لأننا نريد - نسأل المجلس اللطف بنا - أن نتكلم بكلامٍ لا يقع إلا على أذنينا، ولو مرّة واحدة.

اسمنا هو مساواة ٢٥٢١-٧، كما هو مكتوب في سوارنا الحديدي الذي نرتديه، كما يرتدي جميع الناس الأساور الحديدية في معاصمهم اليسرى وعليها أسماؤهم. عمرنا واحد وعشرون عامًا. طولنا ستة أقدام، وهذا عبء علينا لقلة البشر الذين يصل طولهم إلى ستة أقدام. كم مرة أشار المعلمون والقادة إلينا وقالوا عابسين: ثمة شر في عظامكم يا مساواة ٢٥٢١-٧، لأن جسدكم تجاوز أجساد إخوانكم في الطول. ولكن ليس بيدنا أن نغيّر عظامنا ولا جسدنا.

وُلدنا ملعونين. وهذه اللعنة تضلّنا وتدلّنا إلى أفكار محرّمة. تغوينا بأمانٍ يحرم على البشر تمنّيها. ونحن نعلم أن فكرنا باطل لكن ليس فينا إرادة ولا رغبة في دفعه عنا. وهذا هو ما نخشاه وما يحيّرنا، أننا نعلم ولا نقاوم.

نحن نطمع في أن نكون مثل إخوتنا، لأنه واجب على كل البشر أن يكونوا سواء. على بوابات مقرّ المجلس الدولي كلمات محفورة في الرخام عُلّمنا أن نرددها لأنفسنا متى ما داهمتنا شهوة:

الكل هو الواحد، والواحد هو الكل.

لا يعيش بشر دون «نحن» العظيمة.

جماعة واحدة، متكاتفة إلى الأبد.

نعيد هذا لأنفسنا مرارًا فلا ينفعنا قط.

حُفرت هذه الكلمات منذ أمد بعيد. الفطر في أثلام الحروف والعروق الصفراء في الرخام خلّفتها أعوام مما لا يعدّه البشر. وهذه الكلمات هي الحقيقة، ولا غير الحقيقة تُخطّ على مقر المجلس الدولي، فهو أصل الحقيقة نفسها. وهي الحقيقة التي نعرفها منذ «البعث العظيم»، أما قبل ذلك فلا ذاكرة حية تعرفه.

ولكن لا يجوز أن نتكلم عن الحياة قبل البعث العظيم، وإلا فجزاؤنا الحبس ثلاثة أعوام في مقر الحبس التأديبي. ولا غير كبار السن يتهامسون بأخبار ذلك الزمان في الليالي التي يقضونها في «دار عديمي النفع». يتسارّون عن أشياء غريبة، عن الأبراج التي تبلغ السماء، في «الزمن الذي يحرم الكلام عنه»، وعن العربات التي لا تجرّها جياد، وعن النور الذي يضيء بلا لهب. لكن ذاك الزمان فاسد، وقد مضى وانقضى، عندما أدرك البشر الحقيقة العظيمة وهي: أن كل البشر واحد، وأن لا إرادة إلا إرادة الجماعة.

كل البشر أخيار حكماء. لا أحد سوانا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، الذين وُلدنا بلعنة. لسنا مثل إخوتنا. ونحن حينما ننظر إلى ما مضى من حياتنا، نرى أنها كانت هكذا منذ كنا، وأن خطواتنا ألقتنا إلى معصيتنا

العظمى الأخيرة، إلى رذيلة الرذائل، مختبئين هنا تحت الأرض.

نحن نتذكر «دار المواليد» حيث عشنا حتى بلغنا الخامسة، كلنا معًا مع أطفال المدينة الذين وُلدوا في العام نفسه. كانت قاعات النوم في الدار بيضاء نظيفة عارية من كل شيء ما خلا مئة سرير. وكنا مثل بقية إخوتنا حينئذ، غير أننا ارتكبنا معصية واحدة: كنا نتشاجر مع إخوتنا. والعراك مع إخوتنا، في أي سن ولأي سبب، من المعاصي الموبقة. هكذا قال لنا مجلس الدار، فكنا أكثر من حُبس في القبو من بين الأطفال كلهم في ذاك العام.

لما كان عمرنا خمسة أعوام أُرسلنا إلى «دار الطلاب»، وفيها عشرة أجنحة لكل عام من أعوام دراستنا. والناس يتعلمون إلى أن يبلغوا الخامسة عشرة. بعدئذ ينصرفون إلى مهنهم. وفي دار الطلاب كنا نستيقظ عندما يُقرع الجرس الكبير في البرج، ونأوي إلى فرشنا لما يُقرع مرة ثانية. وقبل أن نخلع ثيابنا كنا نقف في قاعات النوم الكبيرة ونرفع أذرعنا اليمنى، ونقول بصوت واحد مع المعلمين الثلاثة الواقفين في رأس الصف: نحن لا شيء، والجماعة هي كل شيء. نعيش في ظل إخوتنا وبفضل إخوتنا. نحن موجودون من خلال إخوتنا ولأجلهم وبهم، وهم الدولة. آمين.

ثم ننام. في قاعات النوم البيضاء النظيفة العارية من كل شيء ما خلا مئة سرير.

نحن، مساواة ٢٥٢١-٧، لم نكن سعيدين في الأعوام التي قضيناها في دار الطلاب. وما كان السبب هو أن الدراسة كانت عسيرة على

فهمنا، بل لأنها كانت بالغة اليسر. إنه إثم عظيم أن يكون الإنسان مولودًا بذهن فطن. وليس من الفضل أن يكون الإنسان مختلفًا عن إخوته، ولكن أن يكون أفضل منهم هو الفسق بعينه. هذا ما قاله لنا المعلمون، وكانت وجوههم تكفهر متى ما نظروا إلينا.

ولهذا فإننا جاهدنا هذه اللعنة. كنا نحاول أن ننسى دروسنا، لكننا كنا نتذكر. كنا نحاول ألا نفهم ما يعلّمه المعلمون لنا، لكننا كنا نفهم قبل أن يشرحوا حتى. كنا ننظر إلى ائتلاف ٣٩٩٢-٥، وكانوا ولدًا شاحبًا بنصف عقل، فنحاول أن نقول ونفعل ما يقولونه وما يفعلونه، لعلّنا نكون مثلهم، مثل ائتلاف ٣٩٩٢-٥، لكن المعلمين كانوا يعرفون بطريقتهم أننا مختلفون. وكنا نُجلد أكثر من بقية الأطفال كافة.

كان المعلمون عادلين، فهم مكلّفون من المجالس، والمجالس هي صوت العدالة، لأن صوتها هو صوت البشر كلهم. وإن كنّا أحيانًا، في سريرة قلبنا الأسود، نندم على ما ألمّ بنا في يوم ميلادنا الخامس عشر فإننا نعلم أن ما حدث ذلك إلا بما اجترحناه. قد ارتكبناه معصية حينما لم نطع كلمات معلمينا. قال المعلمون لنا جميعًا: إيّاكم وعقد نياتكم على المهنة التي تودّون أن تقوموا بها بعد مغادرتكم دار الطلاب. سوف تشتغلون بما يفرضه عليكم مجلس المهن. لأن مجلس المهن يعلم بمنتهى حكمته أي مكان يحتاج إليكم فيه إخوتكم كما لا يمكنكم معرفته بعقولكم الحقيرة التافهة. وإن لم تكن ثمة حاجة إليكم لخدمة إخوتكم، فلا حاجة لإثقال الأرض بحمل أجسامكم.

لم نكن جاهلين هذه الحقيقة منذ كنا صغارًا، لكن اللعنة حطّمت إرادتنا. كنا مذنبين وبذا نعترف هاهنا: كنا مذنبين بارتكابنا «معصية

التفضيل». فضّلنا عملاً، وفضّلنا دروسًا على غيرها. لم نكن نصغي السمع إلى تاريخ كل المجالس المنتخبة منذ «البعث العظيم»، بل كنا نحب «علوم الأشياء». أحببنا المعرفة. رغبنا في معرفة كل الأشياء التي تكوّن الأرض من حولنا. وسألنا أسئلة كثيرة حتى حرّم المعلمون أسئلتنا.

نحن نعتقد أن في السماء وتحت الماء وفي النباتات التي تنمو أسرارًا. لكن مجلس العلماء قال إن لا أسرار فيها، ومجلس العلماء مطّلع على كل شيء. وقد تعلّمنا من معلمينا الكثير. تعلّمنا أن الأرض مسطّحة وأن الشمس تدور حولها فيحدث الليل والنهار. درسنا أسماء الرياح التي تهب على البحار فتدفع أشرعة سفننا العظيمة. تعلّمنا كيف نفصد الإنسان كي يُشفى من كل أمراضه.

أحببنا علوم الأشياء. وفي غمرة الظلام، في ساعة السر، عندما كنا نفيق في الليل ولا إخوة من حولنا سوى ما نتبينه من ظلال أجسادهم على الأسرّة، وما نسمعه من غطيط أنفاسهم، كنا نغلق عينينا، ونزمّ شفتينا، ونكتم أنفاسنا كيلا تفلت هزّة منا فيرى إخوتنا، أو يسمعون أو يخمنون، وتمنينا أن نُرسل إلى دار العلماء حين نتمّ أعوامنا.

من دار العلماء تأتي كل الاختراعات الحديثة العظيمة، ومنها الشمعة وهي آخر اختراع أُبتكر منذ مئة عام فقط، من صبّ كتل الشمع في أعواد فيها فتيل، وكذلك صنع الزجاج الذي يُوضع في نوافذنا ليحمينا من المطر. ومن أين عرف العلماء هذه المعارف إلا من دراسة الأرض وملاحظة الأنهار، ومن الرمال، ومن الرياح والصخور. ولو أننا التحقنا بدار العلماء لتعلّمنا منها نحن أيضًا، ولسألنا عنها، فهم لا

يحرّمون الأسئلة.

الأسئلة تعيينا. ولا ندري لم تحضّنا لعنتنا على البحث عن شيء لا ندري ما هو، نظل نبحث ونبحث دائمًا. ولا سبيل لنا في قمعها. إنها تهمس لنا أن أشياء عظيمة تحويها أرضنا، وأن من واجبنا معرفتها. ونسأل: لماذا نتوق إلى المعرفة؟ لكنها لا تمنحنا أي إجابة. يجب أن نعرف لأننا نريد أن نعرف.

فلذا تمنّينا أن نُرسل إلى دار العلماء. وبلغت بنا شدة التمني أن ارتعشت يدينا من تحت الغطاء في الليل، وأن عضضنا ذراعنا لعل ذاك الألم الآخر الذي لم نطق احتماله يكف. ارتكبنا المعصية وما كنا نجرؤ على رؤية إخوتنا لما حان الصباح. لا يجوز للبشر تمنّيهم أي شيء لأنفسهم. وحلّ علينا العقاب حين جاءنا مجلس المهن ليعطونا «مراسم حياتنا» التي تحدّد لأولئك الذين بلغوا الخامسة عشرة المهنة التي سيفنون بها أعمارهم.

قدِم مجلس المهن في أول أيام الربيع، وعقدوا جلستهم في القاعة الكبرى. فاجتمعنا نحن الذين بلغنا الخامسة عشرة وجميع المعلمين في القاعة الكبرى. وجلس أعضاء مجلس المهن على منصة عالية، وما قالوا لكل طالب سوى كلمتين. نادوا أسماء الطلاب، وعندما يتقدّمون أمامهم، واحدًا تلو الآخر، يعلن المجلس مرسومه: نجار أو طبيب أو طبّاخ أو قائد. فيرفع عندئذ الطلاب ذراعهم اليمنى ويقولون: كما يشاء إخوتنا.

فإن قرّر المجلس أن طالبًا نجار أو طبّاخ، ينصرف الطلاب المكلّفون

إلى أشغالهم وينقطعون عن الدراسة. أما إن قرر المجلس لطالب أن يكون قائدًا، فيتجه أولئك الطلاب إلى دار القادة، وهي أعظم دار في المدينة ولها طوابق ثلاثة. فيدرسون هناك أعوامًا طويلة، من أجل أن يصبحوا مرشّحين، وأن يُنتخبوا في مجلس المدينة، وفي مجلس الدولة، وفي مجلس العالم، بتصويت عام وحرّ من جميع البشر. ولكننا لم نكن نسعى إلى أن نكون قائدًا، وإن كان فيه من الشرف العظيم ما فيه، إنما تمنينا أن نكون عالمًا.

انتظرنا دورنا في القاعة الكبرى، ثم سمعنا مجلس المهن يدعو اسمنا: مساواة ٢٥٢١-٧. اقتربنا من المنصة بخطوات ثابتة ورفعنا بصرنا إلى المجلس، وكانوا خمسة؛ ثلاثة من الذكور واثنتان من الإناث. شعورهم بيضاء ووجوههم متغضّنة، كطين يابس في قعر نهر جاف. عجائز. أسنّ من رخام قداسة المجلس الدولي. جلسوا أمامنا ساكنين. ولم نرَ نفسًا يحرّك ثنايا شملاتهم البيضاء. لكننا علمنا أنهم أحياء لمّا تحركت إصبع يد أكبرهم، فارتفعت، ثم أشارت إلينا، ثم انخفضت. ولم يتحرّك شيء سواها، ولا حتى شفتا أكبرهم حين قال: كنّاس.

انقبضت أوتار عنقنا، ورفعنا رأسنا ننظر إلى وجوه المجلس، لكننا كنا سعداء. فالآن نستطيع التكفير عن ذنبنا. سوف نقبل مرسوم حياتنا، وسوف نعمل من أجل إخوتنا برضا وسرور، وسوف نمحو الخطيئة التي اقترفناها بحقهم، وإن كانوا لا يعلمونها فنحن نعلمها. أصابتنا سعادة وفخر بنفسنا أن انتصرنا عليها. فرفعنا ذراعنا اليمنى وقلنا بصوت كان الأعلى والأثبت في القاعة ذلك اليوم: كما يشاء إخوتنا.

وحدّقنا إلى أعين المجلس، لكن أعينهم كانت باردة، كبرودة قطع

أزرار الزجاج الزرقاء.

فكان أن انتقلنا إلى دار الكنّاسين. وكانت دارًا رمادية في شارع ضيّق. وفي باحتها مزولة شمسية يعرف بها مجلس الدار ساعات اليوم وأوقات قرع الجرس. فإن قُرع الجرس قمنا من أسرّتنا. نرى السماء من نوافذنا الشرقية باردة مكفهرّة. وقبل أن يتمّ ظل عصا المزولة نصف ساعة في تحرّكه نكون قد ارتدينا ملابسنا وتناولنا إفطارنا في قاعة الطعام، حيث وُضعت خمس طاولات كبيرة، على كل واحدة عشرون طبقًا فخاريًا وعشرون كأسًا من الفخار كذلك. ولما نفرغ من الإفطار نتوجّه إلى كنس شوارع المدينة بالمكانس والمدمّات. وبعد خمس ساعات، بعد أن ترتفع الشمس وتشتدّ، نرجع إلى الدار ونتناول الغداء في نصف ساعة، ثم نقصد الشوارع ثانيةً. نعمل خمس ساعات حتى تسودّ الظلال على الأرصفة، وتصير السماء زرقاء ذات ضياء مظلم، وهو ليس بضياء. ونرجع لنأكل عشاءنا ومدته ساعة واحدة. وبعدئذ يقرع الجرس فنمشي في صف واحد إلى قاعة من قاعات المدينة لحضور الملتقى الاجتماعي. وتفد أيضًا صفوف من رجال دور المهن الأخرى. توقد الشموع، ويقف أعضاء مجالس الدور المختلفة على المنبر، فيحدّثوننا عن واجباتنا وعن إخوتنا. وبعدها يعتلي المنبر قادة زائرون، فيقرؤون الخُطب التي أُلقيت في مجلس المدينة ذلك اليوم، لأن مجلس المدينة يمثّل كل البشر، ومن واجب كل البشر أن يعلموا. ثم ننشد التراتيل، ترتيلة الأخوّة، وترتيلة المساواة، وترتيلة روح الجماعة. السماء أرجوانية مخضّلة في طريق عودتنا إلى الدار. ولمّا يقرع الجرس نسير في صف مستقيم إلى مسرح المدينة لقضاء ثلاث ساعات في الترفيه الاجتماعي. فتُعرض على المسرح مسرحية تقودها جوقتان كبيرتان من دار الممثلين، تتكلمان

وتجيبان معًا، بصوتين مدويين. وتدور موضوعات المسرحيات حول الكدح وقيمته والخير الذي يجلبه. نعود بعدها إلى الدار في صف واحد مستقيم. وتكون السماء كمنخل أسود تثقبه قطرات فضة متذبذبة، كأنها تكاد تنفذ منه. وفَرَاش الليل تطرق زجاج فوانيس الشارع. نأوي إلى أسرتنا وننام، حتى يُقرع الجرس من جديد. وقاعات النوم بيضاء نظيفة عارية من كل شيء ما خلا مئة سرير.

وهكذا عشنا كل يوم من أيام الأعوام الأربعة التي خلت، حتى قبل ربيعين، يوم وقعت جريمتنا. وهكذا يحيا البشر إلى أن يبلغوا الأربعين، وما إن يبلغوا الأربعين حتى تكون أجسادهم قد بليت. لمّا يبلغون الأربعين يُرسلون إلى دار عديمي النفع، حيث يعيش كبار السن. ولا يعمل كبار السن، لأن الدولة ترعاهم. فيقضون أيام الصيف جالسين في الشمس، وأيام الشتاء حول الموقد. ولا يتكلمون كثيرًا لأنهم متعبون. وكبار السن يعلمون أنهم ميتون قريبًا. وإن وقعت معجزة وعاش بعضهم حتى الخامسة والأربعين، نسميهم «المعمّرين»، ويظل الأطفال يطيلون النظر فيهم متى ما مرّوا على دار عديمي النفع. وهذه هي حياتنا، كما هي حياة إخوتنا جميعًا، وإخوتنا الذين جاءوا من قبلنا.

وهكذا كانت ستغدو حياتنا، لولا أننا اقترفنا جريمتنا التي بدّلت كل شيء في حياتنا. لعنتنا هي التي وجّهتنا إلى جريمتنا. فقد كنّا من قبل كناسًا صالحًا، مثل إخوتنا الكنّاسين، لولا شهوتنا الملعونة في العلم. كنّا نرسل بصرنا مطوّلاً في نجوم الليل، وفي الأشجار والأرض. وعندما ننظّف فناء دار العلماء كنا نجمع قوارير الزجاج وقطع المعادن والعظام اليابسة التي يرمونها. كنا نتمنى الاحتفاظ بهذه الأشياء ودراستها، لكن لم يكن لدينا مكان نخفيها فيه. فما كان منّا إلا أن نحملها إلى مجمع مجاري

المدينة. حتى جاء اليوم الذي عثرنا فيه على الاكتشاف.

حدث الأمر قبل ربيعين. نعمل نحن الكناسين في فرقة من ثلاثة، وكنّا مع ائتلاف ٣٩٩٢-٥، أولئك الذين هم بنصف عقل، وثالثنا اسمهم دُوليّ ٨٨١٨-٤. وفي حين كان ائتلاف ٣٩٩٢-٥ فتى كثير المرض تصرعهم أحيانًا نوبات تشنّج، فيزبد فمهم وتبيضّ عيناهم، كان دُوليّ ٨٨١٨-٤ خلافهم. كانوا شابًا طويلاً قويًا، لهم عينان يلتمع فيهما البريق، وهو بريق الضحك. لا نقدر أن ننظر إلى دُوليّ ٨٨١٨-٤ ثم لا نبتسم. ولأجل هذا السبب لم يكونوا محبوبين في دار الطلاب، لأن الابتسامة لا تجوز بلا داعٍ. ولم يكونوا محبوبين كذلك لأنهم أخذوا قطعًا من الفحم ورسموا صورًا على الجدران، وكانت صورًا يضحك منها الناس. وما كان مسموحًا لأحد غير إخوتنا في دار الممثلين أن يرسموا صورًا، ولذا فقد أُرسل دُوليّ ٨٨١٨-٤ إلى دار الكنّاسين مثلنا.

نحن ودُوليّ ٨٨١٨-٤ أصدقاء. ولا يجوز قول ذلك لأن فيه معصية عظيمة، معصية التفضيل الموبقة، أن نحبّ فردًا حبًا يزيد عن حبنا لإخوتنا مجتمعين، لأن حبّ إخوتنا كلهم واجب، وكل البشر أصدقاؤنا. ولم نتكلم نحن ودُوليّ ٨٨١٨-٤ قط عن هذا الأمر. لكننا نعلم. نعلم عندما ننظر إلى عينينا. وعندما ننظر دون أن نتكلّم نعرف أمورًا أخرى كذلك، أمور غريبة لا نجد لها كلمات. هذه الأمور هي التي تخيفنا.

في ذلك اليوم قبل ربيعين، وقع ائتلاف ٣٩٩٢-٥ متشنّجين عند طرف المدينة، قرب مسرح المدينة. فتركناهم يستريحون في ظل خيمة المسرح، وغادرنا مع دُوليّ ٨٨١٨-٤ لنتمّ عملنا. فبلغنا نحن الاثنان

الوادي العميق خلف المسرح، وكان خاليًا إلا من بعض الشجر والحشائش. ومن وراء الوادي سهلٌ، ومن خلف السهل تقبع الغابة المجهولة، التي يحرم على البشر التفكير فيها.

كنا نجمع الأوراق والخرق التي حملها الهواء من جهة المسرح حين وجدنا مقبضًا حديديًا بين الحشائش. وكان قديمًا صدئًا بفعل مواسم المطر المتلاحقة. سحبناه بكل قوتنا لكننا لم نقوَ على تحريكه. فنادينا دُوليّ ٨٨١٨-٤ وحفرنا معًا التراب من حول المقبض. وفجأة انخسفت الأرض في الموضع الذي نحفره، وظهرت شبكة حديدية قديمة تغطي حفرة سوداء.

تراجع دُوليّ ٨٨١٨-٤ إلى الخلف. أما نحن فسحبنا الشبكة وانخلعت. ثم رأينا حلقات حديدية كأنها سلم مثبت في جدار التجويف، تفضي إلى ظلمة بلا نهاية.

قلنا لدُوليّ ٨٨١٨-٤: سوف ننزل إلى أسفل.

فأجابونا: لا يجوز هذا.

قلنا: لا يعلم المجلس بوجود هذه الحفرة، فالنزول فيها ليس محرّمًا إذًا.

وكان ردهم: ولأن المجلس لا علم له بهذه الحفرة، فلا قانون يسمح بدخولها. وكل ما هو غير مسموح بالقانون فهو محرّم.

لكننا قلنا: ومع هذا فإننا سوف ننزل فيها.

كانوا خائفين لكنهم ظلوا واقفين يراقبون نزولنا.

تعلّقنا بالحلقات الحديدية بأيدينا وأقدامنا. ولم نكن نقدر أن نتبين شيئًا تحتنا. ومن فوقنا ظلّت فتحة الحفرة التي نرى منها السماء تضيق وتصغر، حتى صارت بحجم الزر. وما أثنانا ذلك عن المضي. ثم لمست قدمانا القاع. فركنا عينينا لأننا لم نستطع أن نرى شيئًا. ولمّا اعتادت عيناننا الظلام لم نكد نصدّق ما رأيناه.

لا بشر نعرفهم يستطيعون بناء هذا المكان، ولا حتى إخوتنا الذين عاشوا من قبلنا، ومع هذا فهو من صنع البشر. كان المكان نفقًا واسعًا. جدرانه صلبة وناعمة الملمس، تبدو كأنها من حجارة، لكنها ليست حجارة. على الأرض خطوط طويلة رفيعة من حديد، لكنه ليس حديدًا، ملمسه مصقول بارد كالزجاج. ركعنا وزحفنا إلى الأمام، يدنا تتحسس الخط الحديدي كي نرى إلى أين يقود. لكن الظلام الدامس من حولنا لا ينفذ منه بصيص ضوء. لا شيء يلتمع فيه سوى الخطوط الحديدية، بيضاء مستقيمة، تدعونا أن نتبعها. لكننا لم نقدر على اتباعها وإلا فقدنا بقعة الضوء من خلفنا. فاستدرنا في الزحف ويدنا على خط الحديد. قلوبنا ترتجف في أطراف أصابعنا دون سبب. أدركنا حينها ما هو.

أدركنا بغتة أن هذا المكان من أطلال الزمن الذي يحرم الكلام عنه. فالأمر إذًا حقيقة، وذلك الزمن قد كان، وأعاجيب ذلك الزمن قد وُجدت. عرفت البشرية منذ مئات فوق المئات من السنين أسرارًا فقدنا نحن. وخطر لنا أن هذا مكان خبيث، وملعونون من يلمسون أشياء من الزمن الذي يحرم الكلام عنه. لكن يدنا التي تتلمس الخط ونحن

نزحف أمسكت الحديد كأنها لا تود الافتراق عنه، كأن جلد يدنا ظمآن يرتجي من المعدن سائلاً مجهولاً يجري في برودة مساره.

تسلّقنا إلى سطح الأرض. نظر إلينا دُوليّ ٨٨١٨-٤ فتراجعوا خطوة.

قالوا: مساواة ٢٥٢١-٧. إن وجهكم أبيض.

لكننا لم نستطع الكلام، فوقفنا ننظر إليهم.

تراجعوا أكثر كأنهم يخشون لمسنا. ثم ابتسموا ابتسامة غير سارة، بل كانت حائرة راجية. وما استطعنا مع ذلك الكلام. ثم قالوا: سوف نبلغ مجلس المدينة باكتشافنا فننال مكافأة.

عندئذ نطقنا. كان صوتنا قاسيًا، لا رحمة في كلماتنا. قلنا: لن نبلغ عن اكتشافنا مجلس المدينة. لن نبلغ أي بشر.

رفعوا يديهم إلى أذنيهم، فهم ما قد سمعوا كلمات مثل هذه قط.

سألناهم: أسوف تبلغون المجلس عنّا يا دُوليّ ٨٨١٨-٤ ثم تراهم يجلدوننا حتى الموت بعينيكم؟

انتصبوا فجأة وأجابوا: بل الموت علينا أحبّ.

قلنا: إذًا احفظوا السر. هذا المكان لنا. هذا المكان ينتمي إلينا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، وليس لأي بشر آخر على الأرض. وإن اضطررنا يومًا إلى تركه فسوف نسلّم حياتنا معه.

رأينا أن دُوليّ ٨٨١٨-٤ يحبسون دموعًا بين جفنيهم لا يجرؤون على ذرفها. همسوا وارتعش صوتهم، فكانت كلماتهم بلا شكل: إن إرادة المجلس فوق الجميع لأنه إرادة إخوتنا، وهي مقدّسة. لكن إن كان هذا ما تريدون فسوف نطيعكم. إنه لأحب إلينا أن نأتي الإثم معكم على أن نقدّم الخير إلى إخوتنا أجمعين. لتتنزل رحمة المجلس على قلبينا!

عدنا سائرين إلى دار الكنّاسين. وكنا نسير في صمت.

فكان أن دأبنا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، على التسلل كل ليلة، عندما ترتفع الأنجم ويجلس الكناسون في مسرح المدينة، والجري إلى مكاننا في الظلام. من السهل مغادرة المسرح، فبعد أن تطفأ الشموع ويظهر الممثلون على المنصة، لا نجد أعينًا ترنو إلينا ونحن ننزل من مقعدنا ثم نزحف تحت غطاء الخيمة. وبعد ذلك يكون من السهل أيضًا التسلل من بين الظلال والاصطفاف بجانب دُوليّ ٨٨١٨-٤ عندما يغادر الصف المسرح. والشوارع مظلمة ولا أحد يسير فيها، لأنه لا يجوز لأحد أن يمشي في المدينة إن لم يكن ثمة مقصد لسيرهم. نهرع إلى الوادي كل ليلة، ونزيح الأحجار التي راكمناها فوق الشبكة الحديدية كي نخفيها عن أعين الآخرين. كل ليلة، ولثلاث ساعات، نجلس تحت الأرض، وحدنا.

سرقنا شموعًا من دار الكنّاسين، وسرقنا أحجار قدّاحة وسكاكين وأوراقًا، وجلبناها إلى هذا المكان. سرقنا قوارير زجاجية ومساحيق وأحماض من دار العلماء. والآن نجلس في النفق ثلاث ساعات كل ليلة وندرس. نذيب معادن غريبة، ونخلط الأحماض، ونشرّح أجساد الحيوانات التي نجدها في مجمع مجاري المدينة. بنينا فرنًا من الحجارة

التي جمعناها من الشوارع. نحرق فيه الخشب الذي جمعناه من الوادي. فتلتهب ألسنة النار وتتراقص ظلال زرقاء على الجدران. ولا صوت بشر يزعج سكوننا.

سرقنا مخطوطات. وهذا إثم عظيم. فالمخطوطات ثمينة لأن إخوتنا في دار الكُتّاب ينسخون في عام كامل النص الواحد بخطوطهم المتناسقة. ولذا فالمخطوطات نادرة ولا تُحفظ إلا في دار العلماء. فنجلس نحن تحت الأرض ونقرأ المخطوطات المسروقة. مرّ عامان مذ وجدنا هذا المكان. وقد تعلّمنا في هذين العامين أكثر مما تعلمناه في الأعوام العشرة التي عشنا فيها في دار الطلاب.

تعلّمنا أشياء ليست مكتوبة في المخطوطات. حللنا ألغازًا لا يعرفها العلماء. تعرّفنا على بهاء اللامطروق، ونعلم أننا لن نبلغ نهاية بحثنا، وإن زادت على حياتنا حيوات. وإن نريد إلا الانعزال والدراسة، وأن يحتدّ بصرنا مع الأيام كحدة بصر الصقر، وأن نرى حقائق العالم كما نرى من خلال أحجار المرو.

عجيبة هي مسالك الشر. ننافق في وجه إخوتنا. ونعصي أوامر مجالسنا. لا غيرنا، من الآلاف الذين يسيرون في الأرض، لا غيرنا يعملون في هذه الساعة عملاً لا فائدة منه عدا أننا نرغب في عمله. إن خبث جريمتنا لا يستوعبه عقل بشر. وإن قسوة عقابنا، إن هم اكتشفوها، لا تحتملها قلوب البشر. ما حصل قط، ولا في ذاكرة أكبر المعمرين عمرًا، أن فعل بشر ما نفعله.

وبرغم هذا فلا أثقلنا خزي ولا طالنا ندم. نقول لأنفسنا إننا بائسون

خائنون. وبرغم هذا فلا همًا ينهك روحنا ولا خوفًا يطمس قلبنا. بل إننا لنحسب أن روحنا صافية، كصفاء بحيرة ما رمقتها عين غير عين الشمس. وفي قلبنا - وعجيبة هي مسالك الشر! - في قلبنا سلام ما عرفناه في أعوامنا العشرين.

الفصل الثاني

حرية ٣٠٠٠-٥... حرية خمسة - ثلاثة آلاف... حرية ٣٠٠٠-٥

نريد أن نكتب هذا الاسم. ونتمنى أن ننطقه لولا أننا نخاف أن يرتفع صوتنا به عن الهمس. فإنه يحرم على الرجال أن يلحظوا النساء، ويحرم على النساء أن يلحظن الرجال. لكن التفكير بواحدة من النساء، واسمهن حرية ٣٠٠٠-٥، أضنانا، ولا نفكّر بسواهن.

تعيش النساء اللاتي كُلّفن بزراعة الأرض في دور الفلاحات في أطراف المدينة. فحيث ينتهي العمران يمتد طريق عريض إلى الشمال، ومن اختصاصنا، نحن الكناسين، أن ننظّف هذا الطريق حتى علامة الميل الأول. على جانب الطريق صف شجيرات، ومن وراء الشجيرات الحقول. وهذه الحقول سوداء محروثة، منبسطة كمروحة هائلة أمامنا، تجمع يد يخفيها الأفق أخاديدها، وتنتشر على اتساع باقترابها ناحيتنا، كطيّات قماش أسود بينها شرائط خضراء. تعمل النساء في الحقول، وعندما تهبّ النسائم فتتحرك ثيابهن البيضاء تتخيل أجنحة النوارس

ترفرف فوق التراب الفاحم.

وفي ذاك الموضع رأينا حرية ٣٠٠٠-٥ وهن يسرن بين أثلام الأرض. جسدهن مستقيم نحيل كنصل السيف. عيناهن قاتمة، نظرتهن حادة وهّاجة، بلا خوف فيهما، ولا لطف ولا خزي. شعرهن ذهبي كما الشمس. شعرهن لامع حرّ يتلاعب به الهواء، كأنه يتحدى البشر أن يروّضوه. كنّ يرمين البذور من يدهن كأنهن يتواضعن برمي هدية حقيرة، والأرض لا شيء سوى سائل مرتمٍ تحت قدميهن.

لم نستطع الحركة، وقد عرفنا أول مرة الخوف الذي يعقبه الألم. وقفنا بلا حركة لعلّنا نحفظ هذا الألم الأعزّ من المتعة.

ثم سمعنا صوتًا من الآخرين ينادي اسمهن: حرية ٣٠٠٠-٥، فاستدرن وسرن إليهم. فعرفنا اسمهن، ووقفنا نراقبهن، حتى غاب ثوبهن الأبيض في الضباب الأزرق.

وفي اليوم التالي، وبينما كنا في الطريق الشمالي، ظلت عيناننا تنظران إلى حرية ٣٠٠٠-٥ وهن في الحقل. وفي كل يوم بعده ذقنا ألم انتظار ساعتنا على الطريق الشمالي. فيها كنا ننظر إلى حرية ٣٠٠٠-٥ كل يوم. ولم ندرِ إن كنّ هن ينظرن إلينا كما ننظر نحن، ولكننا نظنّ أنهن كن يفعلن.

في أحد الأيام اقتربن من السياج المشجّر، ثم التفتن نحونا فجأة. وقفن إزاءنا، ثم توقفت كل حركات جسدهن، فجأة كأنهن شَلَلن. وقفن بانتصاب، ينظرن إلينا نحن، ينظرن إلى أعماق عيننا. بلا ابتسامة على وجههن، بلا ترحيب. وجههن مشدود، وعيناهن داكنتان. ثم استدرن بسرعة ومشين في الناحية الأخرى.

لكن في اليوم الذي يليه، عندما بلغنا الطريق، ابتسمن. ابتسمن لنا، ولأجلنا. وابتسمنا نحن لهن. رفعن رأسهن ثم ألقين ذراعيهن وشددن عنقهن البيضاء النحيلة، كأن إرهاقًا عظيمًا أصاب ذراعيهن وعنقهن. لم يكنّ ينظرن إلينا، بل إلى السماء. ثم رنون إلينا بنظرة من فوق كتفهن، فشعرنا كأن يدًا مسحت على جسدنا، وانزلقت في خفة من شفتينا إلى قدمينا.

في كل صباح بعد ذلك كنا نحيِّي بعضنا بعينينا. لم نجرؤ على الكلام. إنه لجريمة أن نكلّم آخرين من المهن الأخرى، إلا أن يتم ذلك في جماعات صغيرة أثناء الملتقيات الاجتماعية. ولكننا رفعنا يدنا مرة ونحن واقفون بجوار السور إلى جبيننا، ثم دفعناها ببطء وكفها في وجه الأرض نحو حرية ٣٠٠٠-٥. لو كان الآخرون رأونا لما فهموا مغزى للإشارة، بل إنهم سيحسبون أننا إنما نظلل عينينا عن وهج الشمس. لكن حرية ٣٠٠٠-٥ رأين وفهمن معناها. رفعن يدهن إلى جبينهن وأشرن كما فعلنا. فصرنا نحيي حرية ٣٠٠٠-٥ كل يوم، وهن يحيّيننا، والآخرون غافلون عنا.

ونحن مع ذلك غير مثقلين بكدر جراء هذا الإثم. وهي خطيئتنا الثانية في التفضيل، لأننا لا نبالي بإخوتنا كافةً كما يجب أن نفعل، لا نفكر إلا بأولئك اللاتي اسمهن حرية ٣٠٠٠-٥. لا ندري لِمَ نفكر بهن. لا نعلم لِمَ نشعر عندما نفكر بهن أن الأرض خيّرة، وأن لا شقاء في الحياة.

لا نسميهن في عقلنا حرية ٣٠٠٠-٥. في أفكارنا أعطيناهن اسمًا آخر. نسميهن الذهبية. وإنه لإثم أن نسمِّيَ البشر أسماءً تميّزهم عن الآخرين. ومع هذا فإننا نسميهن الذهبية، لأنهن لسن كالآخرين.

الذهبية لسن كالآخرين.

وكذلك فقد عصينا القانون الذي يأمر الرجال ألا يفكّروا بالنساء، إلا في وقت التزاوج. وهذا موعد محدّد بحين كل ربيع، يُرسل فيه كل الرجال الذين جاوزوا العشرين وكل النساء اللاتي جاوزن الثامنة عشرة ليبيتوا ليلة واحدة في مقرّ التزاوج في المدينة. ولكل رجل امرأة خصّصها له مجلس تحسين النسل. يُولد الأطفال في كل شتاء، لكن النساء لا يرين أطفالهن، والأطفال لا يرون أمهاتهم وآبائهم قط. أُرسلنا مرتين إلى مقر التزاوج، لكن الأمر قبيح مخزٍ ونحن نكره التفكير فيه.

خالفنا من القوانين الشيء الكثير، واليوم انتهكنا قانونًا آخر. اليوم تكلمنا مع الذهبية.

كانت النساء الأخريات في موضع بعيد في منتصف الحقل، فوقفنا بجانب السور على طرف الطريق. وجدنا الذهبية راكعات وحدهن عند ضفة جدول يخترق وسط الحقل. وقطرات الماء التي تقطر من بين يديهن وهن يرفعن غرفة الماء إلى شفتيهن كأنها شرارات نار في وهج الشمس. لمحننا، لكن الذهبية لم يتحركن، ظللن قاعدات، ظللن ناظرات إلينا، دوائر سنيّة تحوم على ثوبهن الأبيض، بفعل سقوط أشعة الشمس على ماء الجدول، وقطرة براقة انحدرت من إصبع يدهن فتجمّدت في الفضاء.

نهضن ودنون من سور الشجيرات، كأن في عينينا أمرًا التقطته أذناهن. وكان الكنّاسان الآخران في فرقتنا على بعد مئة خطوة عن موضعنا. حسبنا أن دوليّ ٨٨١٨-٤ لن يخونونا، وائتلاف ٣٩٩٢-٥

لن يفهموا. فأمعنّا النظر في الذهبية، ورأينا في ء رموشهن على خدّيهن الأبيضين، والشمس تسطع على شفتيهن. قلنا: فيكنّ جمال يا حرية ٣٠٠٠-٥.

لم يتغير وجههن، ولم يغضضن بصرهن. بل اتّسعت عيناهن، ونضحت بالانتصار. ليس انتصارًا علينا، ولكنه على أمور لم يسعنا التكهّن بها.

سألن: ما اسمكم؟

أجبنا: مساواة ٢٥٢١-٧.

أنتم لستم كبقية إخوتنا يا مساواة ٢٥٢١-٧، ولا نريدكم أن تكونوا.

لا نستطيع أن نعرف معنى كلامهن، فلا كلمات تحمل معناه، لكننا نعرفه دون كلمات الآن، كما عرفناه حينئذ.

قلنا: لا، ولا أنتن كمثل أخواتنا.

إن كنّا نحن ضمن عشرات من النساء، ترى أتعرفوننا؟

نعرفكن يا حرية ٣٠٠٠-٥ ولو كنتن بين نساء الأرض كلهن.

ثم سألننا: أيُكلّف الكناسون بتنظيف نواحٍ متفرقة من المدينة، أم أنهم يعملون دائمًا في الأماكن نفسها؟

كان ردنا: بل يعملون دائمًا في الأماكن نفسها، ولن يحرمنا أحد من هذا الطريق.

قلن: عيناكم لا تشبه أعين أحد من الرجال.

غمرتنا برودة، برد أصاب جوفنا دون أن ندري أي علة اجتلبته على حين غرة.

سألناهن: كم عمركن؟

فهمن مغزى سؤالنا، فأطرقن رأسهن أول مرة.

همسن: سبعة عشر.

خرجت زفرة حارة من صدرنا، كأن ثقلاً أُزيح عن كاهلنا، إذ إن مقر التزاوج خطر في عقلنا دون سبب. وقد عزمنا ألا ندع الذهبية يذهبن إلى القصر. كيف نحول دون ذلك، كيف ندفع قضاء المجلس، لم نعلم كيف، لكننا كنا واثقين أننا سنفعل. وإن كنا لا ندري لأي سبب خطرت لنا هذه الفكرة، وإن هذه الأفكار لا تمت بصلة لنا أو للذهبية. أي صلة قد تربط بيننا؟

وبرغم ذلك، ودون سبب نعلمه، وجدنا نفسنا نزمّ شفتينا بحقد ونحن واقفون عند الشجر، كراهية مفجعة لكل إخوتنا. والذهبية لاحظن كراهيتنا فافترّت شفتاهن عن ابتسامة متمهلة. أول مرة نرى بؤسًا فيهن، في ابتسامتهن. ونظن أن الذهبية فطنّ بحكمة النساء إلى ما لم نفهمه نحن.

ظهرت ثلاث من الأخوات في الحقل متجهات إلى ناحية الطريق، فما كان من الذهبية إلا أن ابتعدن عنّا. أخذن جوال البذور، ونثرن منه البذور وهن يمشين، يريدن أن تقع في أخاديد التراب، لكنها تبعثرت في

أرجاء متفرقة، لأن يد الذهبية كانت ترتجف.

في طريق عودتنا إلى دار الكنّاسين أردنا أن نغني بلا سبب، وقد نلنا عقابًا تلك الليلة في قاعة الطعام، لأننا دون أن نعي ما نفعل قد شرعنا في غناء نغمةٍ ما سمعناها من قبل بصوت عالٍ. ولا يجوز الغناء بلا سبب، لا يصح الغناء إلا في الملتقيات الاجتماعية.

ولمّا استجوبنا فرد من مجلس الدار وقت عقابنا، أجبنا: نغنّي لأننا سعداء.

فأجابوا: إننا حقًا سعداء. وكيف لا يكون البشر سعداء وهم يحيون لأجل إخوتهم؟

نحن الآن نمعن الفكر، ونحن جالسون في نفقنا هنا، في كلماتهم. يحرم علينا أن نكون غير سعداء. فسروا لنا ذلك، فقالوا إن البشر أحرار، والأرض مسخّرة لهم، وكل ما على الأرض مسخر لكل البشر، وإن إرادة كل البشر فيها الخير للكل، فلا مناص إذًا أن يكون البشر كلهم سعداء.

لكننا لما وقفنا في الليل في القاعة الكبرى نخلع عنا ملابسنا، أجلنا النظر في إخوتنا وتفكّرنا. رؤوس إخوتنا مطرقة. أعين إخوتنا غائرة، وهم لا ينظرون إلى أعين الآخرين قط. أكتاف إخوتنا محنية، وعضلاتهم مشدودة، كأن أجسادهم تتصاغر، وهم يودّون لو تتصاغر حتى تختفي عن الأنظار. تسللت كلمة إلى عقلنا ونحن نتأملهم، وهذه الكلمة هي: الخوف.

الخوف يطوّقنا في قاعات النوم، ويندسّ في جنبات الشوارع. الخوف يمشي في المدينة، خوف بلا اسم، بلا شكل. كل البشر يحسونه ولا يجرؤون على الكلام عنه.

كذلك نشعر نحن به عندما نكون في دار الكنّاسين. لكنه هنا، في نفقنا، يتنحّى عنا. الهواء تحت الأرض نقي. لا أثر لرائحة بشر فيه. وهذه الساعات الثلاثة تثبّت شجاعتنا لاحتمال ساعاتنا فوق الأرض.

إن بدننا يكاد يفضحنا، لأن مجلس الدار يرمقنا في ريبٍ. ليس من الخير أن نشعر ببهجة غامرة ولا أن نسعد بعيش أجسادنا. وجودنا غير مهم، وينبغي ألا نهتم سواءً حيينا أم فنينا، وهذا أمره بيد إخوتنا. لكننا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، سعداء لأننا أحياء. وإن كان هذا منكرًا، فإننا في غنى عن كل فضيلة.

لكن إخوتنا ليسوا مثلنا. إخوتنا ليسوا بخير. أحدهم مؤاخاة ٥٥٠٣-٢، وهم شاب هادئ، لهم عينان طيّبتان لبيبتان، يبكون فجأة ودون سبب، ليلاً ونهارًا، ويهتز بدنهم بنشيج لا يدرون ما أثاره. وكذلك تكافل ٦٣٤٧-٩، وهم شاب ذكي، لا يخلون من جسارة في النهار، لكنهم لا يكفون عن الصراخ في هدأة الليل أثناء نومهم. يصيحون: ساعدونا! ساعدونا! ساعدونا! بصوت يجعل عظامنا تصطفق وجلاً. وليس لدى الأطباء علاج لما يُسقم تكافل ٦٣٤٧-٩.

عندما يجنّ الليل، ونخلع كلنا عنّا ثيابنا، على ضوء الشموع الخافت، نلفي إخوتنا صامتين لا يجرؤون على الإفصاح عن أفكارهم. لأنه يجب أن يتفق الجميع مع الجميع، وكيف يعلمون إن كانت أفكارهم هي

نفسها أفكار الجميع، فيخافون الكلام، ويرتاحون لمّا تطفأ الشموع عند النوم. أما نحن، مساواة ٢٥٢١-٧، فننظر من النافذة إلى السماء، فنلقى فيها سلامًا وطهارةً وكرامة. ومن وراء المدينة ينبسط السهل، ومن وراء السهل، فوق سواد السماء، الغابة المجهولة.

نحن لا نريد أن نتطلع إلى الغابة المجهولة. لا نريد أن نفكّر فيها. لكن بصرنا لا يلبث يرتدّ إلى تلك البقعة المعتمة. لا يدخل البشر الغابة المجهولة، فلا طاقة لهم على استكشافها، ولا طريق يشق أشجارها العتيقة، الحارسات لأسرار مخيفة. همسوا فقالوا إنه حصل خلال مئة عام أن واحدًا أو اثنين من سكان المدينة هربوا وحدهم إلى الغابة المجهولة دون سبب أو منطق. هؤلاء الرجال لا يعودون. يهلكهم الجوع، ونهش الوحوش التي تهيم في الغابة. لكن مجالسنا تقول إن هذه محض أساطير. وسمعنا أن ثمّة غابات مجهولة كثيرة في البلاد، وبين المدن. همسوا فقالوا إنها نبتت على أطلال مدن كثيرة كانت لأناس عاشوا في الزمن الذي يحرم الكلام عنه. وارت الأشجار الأطلال، والعظام التي تحت الأطلال، وكل الأشياء التي فنيت.

نتذكر أثناء تأملنا الغابة المجهولة ليلاً أسرار ذلك الزمن الذي يحرم الكلام عنه. ونتساءل كيف ضاعت تلك الأسرار في هذا العالم. سمعنا من قبل ملاحم المعارك الكبرى، حيث اقتتلت طائفتان، إحداهما كثيرة العدد والأخرى قليلة. أولئك القلة كانوا هم شرار البشر وقد هُزموا. ثم تأججت حرائق مدمّرة في كل البلاد. واحترق الأشرار فيها. إحدى تلك الحرائق اسمها «حريق المخطوطات»، وكذلك سُمّيت «فجر البعث العظيم»، لأن جميع كتابات الأشرار ونصوصهم قد تلفت بالحرق، فانمحت معها كل الكلمات التي خطّها أولئك الأشرار.

ارتفعت جبال شاهقة من لهب في ميادين المدن ثلاثة أشهر. بعدها جاء «البعث العظيم».

كلمات شرار البشر.. كلمات قيلت في الزمن الذي يحرم الكلام عنه... ما كانت تلك الكلمات التي فقدناها؟

أسأل المجلس الرحمة! ما كنا نقصد كتابة هذا السؤال، وما علمنا ما كنّا فاعلين إلا بعد أن كتبناه. نقسم ألا نسأل هذا السؤال وألا نفكّر فيه. لا نريد أن يتسلّط الموت على رقبتنا.

وعلى الرغم من هذا... ومع ذلك...

ثمة كلمة ما، كلمة واحدة فقط ليست في لغة البشر، لكنها كانت في لغتهم. هي «الكلمة التي يحرم نطقها»، التي لا يجوز للبشر أن يقولوها أو يسمعوها. لكن في بعض الأحيان، وهذا أمر نادر الحدوث، في بعض الأحيان، في مكان ما، يجد واحد من البشر تلك الكلمة. يجدونها في قصاصات المخطوطات القديمة أو يجدونها محفورة في حجر أثري. إن نطقوها أُعدموا. لا جريمة يُعاقب عليها البشر بالموت في العالم، إلا جريمة نطق الكلمة التي يحرم نطقها.

رأينا ذات مرة أحد أولئك البشر يُحرقون وهم أحياء في ميدان المدينة. التحم المشهد في أذهاننا طوال تلك السنين، ظلّ يسكن خيالنا، يلاحقنا، يمدّ في سهادنا. كنّا طفلاً حينها، عمرنا عشرة أعوام. وقفنا في الميدان الكبير مع كل الأطفال وكل الرجال في المدينة، وقد أُرسلنا لنشهد الحرق. أحضروا المجرم إلى الميدان وساقوهم إلى المحرقة. كانوا قد انتزعوا لسان المجرم، كي لا يتكلموا بعدها قط. وكانوا شابًا طويلاً،

لهم شعر ذهبي، وعينان بزرقة الصباح. ساروا إلى المحرقة، ولم تتردد خطواتهم. ومن بين الوجوه التي كانت في الميدان، من بين كل الوجوه التي نعقت وصاحت وقذفت اللعنات، كان وجههم هو الأكثر وداعةً واستبشارًا.

وبينما السلاسل تُلف على جسدهم تقيّدهم بالعمود، والنار تُضرم في المحرقة، نظر المجرم إلى المدينة. سال الدم من زاوية فمهم، لكن شفتيهم كانت تبتسم. خطرت لنا فكرة رهيبة عندئذ، ولم تفارقنا أبدًا. قد سمعنا عن القديسين. منهم قديسو العمل، وقديسو المجالس، وقديسو البعث العظيم. لكننا لم نرَ قديسًا قط ولا ندري ما صورة القديس. فوقع في خاطرنا، ونحن واقفون في الميدان، أن صورة القديس هو الوجه الذي رأيناه بين ألسنة اللهب، وجه المجرم الذين نطقوا الكلمة التي يحرم نطقها.

ارتفع اللهب وحدث شيء لم تره سوى عينينا، وإلا لما عشنا إلى هذا اليوم. وربما كان محض خيالنا. لكننا نظنّ أن عينَي المجرم اختارتنا من بين الجموع، وأنها ظلّت تحدق إلينا. لم يكن في عينيهم ألم ولا إدراك للعذاب الذي يكتوي به جسدهم. ما كان فيهما إلا البهجة، والكبرياء، كبرياء أسمى من أن ينزل لكبرياء البشر. خُيّل لنا أن هاتين العينين كانتا تحاولان إبلاغنا بشيء من بين اللهب، تحاولان إرسال كلمة إلى عينينا بلا صوت. خُيّل لنا أن العينين كانتا ترجوان أن نمسك تلك الكلمة، ألا ندعها تتركنا، وتترك الدنيا. لكن النيران التهمت وتصاعدت، وما استطعنا تخمين الكلمة...

ما هي – حتى إن احترقنا لأجلها كما احترق قديس المحرقة – ما هي الكلمة التي يحرم نطقها؟

الفصل الثالث

اكتشفنا، نحن مساواة ٢٥٢١-٧، قوّة جديدة من الطبيعة. اكتشفناها وحدنا، ونحن فقط من يعلمها.

قد أقررنا بذلك. وليكن جزاؤنا الجلد إن كان لا بد منه. يقول مجلس العلماء إننا نعلم كل الأشياء الموجودة، وعليه فإن الأشياء التي لا يعرفها البشر غير موجودة. لكننا نعتقد أن مجلس العلماء أعمى. إن أسرار هذه الأرض ليست مكشوفة لكل البشر، وإنما فقط لأولئك الذين يبحثون عنها. وإننا على يقين من هذا، لأننا عثرنا على سر لا يعلمه أي من إخوتنا.

لا ندري ما هذه القوة ولا من أين وُجدت. لكننا نعلم ما طبيعتها، وقد راقبناها واشتغلنا بها. رأيناها أول مرة قبل عامين. ففي ليلة، وبينما نحن نشقّ جسد ضفدع ميت نصفين، رأينا رجله ترتعش. كان ميتًا، ومع هذا تحرّك. قوة ما مجهولة لدى البشر جعلته يتحرك. لم نفهم ذلك. لكننا وجدنا الإجابة بعد تجارب عديدة. كان الضفدع معلّقًا بسلك من نحاس، وكان معدن سكيننا هو من بعث قوة غامضة إلى النحاس من خلال ماء جسم الضفدع. وضعنا قطعة نحاس وقطعة زنك في إناء من

ماء مالح، وقرّبنا السلك من السائل، فحصلت معجزة لم تحصل من قبل، تحت أصابع يدينا، معجزة جديدة وقوة جديدة.

استبدّ بنا هذا الاكتشاف. واتّبعنا دراسته مؤثرينه على دراساتنا الأخرى. فاشتغلنا به، واختبرناه بطرائق كثيرة تتجاوز الوصف، وكل خطوة تكشف لنا معجزات أخرى. أيقنّا أننا وجدنا أعظم قوة في الأرض. القوة التي تفنّد كل قوانين البشر. هذه القوة تحرّك إبرة البوصلة التي سرقناها من دار العلماء، على الرغم من أننا تعلّمنا ونحن صغارًا أن حجر المغناطيس يشير إلى الشمال، وأن هذا قانون مسلّم به، ولكن قوّتنا تدحض كل القوانين. اكتشفنا أنها تسبّب حدوث البرق، ولم يعلم البشر من قبل قط كيف يحدث البرق. نصبنا في العواصف الرعدية قضيبًا حديديًا طويلاً بجانب حفرتنا، وراقبنا ما يجري ونحن في الأسفل. رأينا البرق يصعقه في كل مرة. ونحن نعلم الآن أن المعدن يجذب قوة السماء، وأن باستطاعتنا أن نجعل المعدن يمدّنا بهذه القوة.

صنعنا أشياء عجيبة باكتشافنا هذا. استعملناه في الأسلاك النحاسية التي عثرنا عليها هنا تحت الأرض. ذرعنا نفقنا بطوله، وبيدنا شمعة تنير الدرب. لم نستطع أن نسير أكثر من نصف ميل في كلا طرفيه، لأن التراب والحجارة قد سدّت المنفذين. لكننا جمعنا كل ما لقيناه وأحضرناه إلى مكان عملنا. وجدنا صناديق غريبة في داخلها قضبان معدنية، وفيها أطواق ولفافات وأسلاك معدنية كثيرة. وكذلك وجدنا أسلاكًا تصل بين كرات زجاجية صغيرة عجيبة مثبتة على الجدران، وبداخل الكرات خيوط معدنية أدقّ من خيوط بيت العنكبوت.

أعانتنا هذه الأشياء في عملنا. لا نفهم عمل كل شيء منها، لكننا

نعتقد أن أهل الزمن الذي يحرم الكلام عنه كانوا يعرفون قوة السماء، وأن هذه الأشياء لها علاقة ما بذلك. نحن لا نعلم، لكننا سوف نتعلّم. ولا يسعنا أن نكفّ الآن، وإن كان أمر استفرادنا بهذه المعرفة يفزعنا.

ليس لفرد واحد حكمة أعظم من حكمة العلماء مجتمعين، العلماء الذين انتخبهم كل البشر بسبب حكمتهم. لكن لدينا نحن هذه الحكمة. نحن من يملكها. حاولنا ألا نقرّ بذلك، لكننا أقررنا. ولا يعنينا أمرهم. أزحنا عن عقلنا كل البشر وكل قوانينهم وكل شيء، ما خلا معادننا وأسلاكنا. ما زال أمامنا الكثير نتعلّمه! والطريق أمامنا طويل، وما يعنينا إن كان لزامًا علينا قطعه وحيدين.

الفصل الرابع

مرّت أيام كثيرة لم نستطع أن نكلّم فيها الذهبية مرة أخرى. حتى كان يوم اشتدّ فيه بياض السماء، كأن الشمس قد تفجّرت وانتشر شرارها في الهواء، والحقول ثاوية بلا نفس، وتراب الطريق أبيض في وهج النهار. فكانت نساء الفِلاحة متعبات، يتلكأن في عملهن، وكنّ بعيدات عن الطريق لمّا وصلنا إليه. لكن الذهبية كنّ واقفات وحدهن ينتظرن. اقتربنا منهن ورأينا أن عينيهن اللتين تحدج العالم بقسوة واحتقار كانتا تنظران إلينا كأنما سينصعن إلى أي أمر يخطر لنا أن نأمره.

قلنا: قد منحناكن اسمًا في أفكارنا يا حرية ٣٠٠٠-٥.

فسألن: ما اسمنا؟

الذهبية.

ونحن لا نسميكم مساواة ٢٥٢١-٧ عندما نفكّر فيكم.

ما الاسم الذي أعطيتنّا إياه؟

أطلن النظر في أعيننا، فرفعن رأسهن وأجبن: القاهر.

لم نستطع الكلام دقائق طويلة. ثم قلنا: هذه الأفكار محرّمة أيتها الذهبية.

ولكن هذه الأفكار ترد في ذهنكم، وتوّدون أن نفكر نحن بها.

نظرنا إلى عينيهن ولم نستطع الكذب.

همسنا: أجل. فابتسمن. ثم قلنا: يا أعزّ البشر، لا تطعننا.

تراجعن، واتّسعت عيناهن وما استطعن الحراك.

همسن: قولوا هذه الكلمات ثانية.

سألنا: أي كلمات؟ لكنهن لم يجبن، وقد عرفنا ما يقصدن.

همسنا: يا أعزّ البشر.

ما نطق الرجال بهذه الكلمات لنساء قط.

أطرق رأس الذهبية ببطء، وتسمّرن إزاءنا، ذراعاهن بجنبيهن، وكفّاهن ظاهران لنا، كأن جسدهن مقدّم بفرض طاعة إلى عيننا. ولم نقدر نحن على الكلام.

ثم رفعن رأسهن وتكلمن بعذوبة متمهّلة، كأنهن يردن أن ننسى قلقًا.

قلن: النهار حار، وقد اشتغلتم ساعات طويلة، فأنتم مرهقون لا بد.

أجبنا: كلا.

قلن: الجو ألطف في الحقول، وفيها ماء للشرب. أتشعرون بالعطش؟

أجبنا: نعم، لكننا لا نستطيع تجاوز السور.

قلن: فسوف نجلب الماء لكم.

ثم ركعن بضفة الجدول، واغترفن الماء بيديهن، فنهضن ورفعن الماء إلى شفتينا.

لا ندري أشربنا الماء أم لم نشرب. ألفينا يديهن فجأة خالية، وإن لم نقصِ شفتينا عن يديهن، ونعلم أنهن يعلمن هذا ولم يبتعدن.

رفعنا رأسنا وتراجعنا، لأننا لم نفهم أي دافعٍ جعلنا نفعل ذلك، وخشينا أن نفهم.

عندها الذهبية تراجعن، وهن ينظرن إلى كفّيهن في ذهول. ثم ابتعدن، على الرغم أن لا آخرين قادمون نحونا. وكنّ يتراجعن إلى الخلف دون أن يزحن نظرهن عنّا، وذراعاهن مطويتان أمامهن، كأنهن لا يستطعن إنزالها.

الفصل الخامس

نحن صنعناه. نحن خلقناه. نحن انتزعناه من غياهب العصور. نحن وحدنا. بيدينا. بعقلنا. نحن فقط ولا غيرنا.

لا ندري ماذا نقول. عقلنا يطيش. ننظر إلى النور الذي صنعناه. مغفورٌ أي كلام نقوله الليلة...

الليلة، وبعد أيام وتجارب أكثر من أن نعدّها، أتممنا بناء شيء غريب من بقايا الزمن الذي يحرم الكلام عنه، صندوق من زجاج، صُنع كي يعطي قوة السماء بدرجة أعظم مما حققنا من قبل. عندما وضعنا أسلاكنا في هذا الصندوق، عندما وصلنا التيار - اشتعل السلك! بُثّت فيه الحياة، وصار أحمر، وانتشرت دائرة من ضوء على الحجارة أمام أعيننا.

وقفنا ووضعنا رأسنا بين يدينا. لم نفهم ما هذا الذي اخترعناه. ما لمسنا فتيلاً ولا أشعلنا نارًا. ومع هذا فأمامنا نور، نور لا ندري من أين أتى، نور من قلب المعدن.

أطفأنا الشمعة. غيّبتنا الظلمة. لا شيء من حولنا عدا الليل وخيط من لهب فيه، وشرخ في جدار السجن. مددنا يدنا إلى السلك، فرأينا

أصابعنا في وهجه الأحمر. لم نستطع رؤية جسمنا ولا الإحساس به، وفي تلك اللحظة انعدم الوجود إلا يدينا الاثنتين فوق سلك مشتعل في هوّة سوداء.

ثم تفكّرنا بمعنى هذا الذي يحصل أمامنا. نستطيع أن نضيء نفقنا والمدينة، وكافة المدن في العالم بلا شيء غير المعادن والأسلاك. نقدر أن نمنح إخوتنا نورًا جديدًا، أنظف وأشدّ من أي ضوء عرفوه في حياتهم. يمكن أن نطوّع قوة السماء فيما يشاء البشر. ولا حدّ لأسرارها ولا لقوتها، ونستطيع أن نجعلها تفعل ما نريده.

عندئذ عرفنا ما يجب علينا فعله. إن اكتشافنا أعظم من أن نضيع وقتنا في كنس الشوارع. يجب ألا نحفظ سرنا لنفسنا، ولا ندفنه تحت الأرض. يجب أن نعرضه لأعين البشر كلهم. نحتاج إلى أن نكرّس له وقتنا كله، ونحتاج إلى معامل دار العلماء، وإلى مساعدة إخوتنا العلماء وحكمتهم إلى جانب علمنا. والعمل أمامنا كلنا كثير، وأمام كل علماء العالم.

سوف يعقد مجلس العلماء الدولي جلسته في مدينتنا بعد شهر. وهو مجلس مبجّل، يُنتخب فيه أكثر البشر علمًا في كل البلاد، وينعقد مرة كل عام في مدن مختلفة في العالم. سوف نقصد هذا المجلس، وسوف نقدّم إليهم، هديةً منّا، الصندوق الزجاجي الذي فيه قوة السماء. سوف نعترف لهم بكل شيء. سوف يرون ويفهمون ويغفرون. لأن هديتنا أعظم من جريمتنا. سوف يشرحون الأمر لمجلس المهن، وسوف نُكلّف بالعمل في دار العلماء. لم يحدث هذا من قبل، ولكن هديةً كهديتنا لم تُعرض على البشر من قبل أيضًا.

ما لنا إلا الانتظار. يجب أن نحرس نفقنا كما لم نحرسه من قبل. فإن عَلِم آخرون غير العلماء سرنا، لن يفهموه ولن يصدّقونا. لن يروا شيئًا غير جريمة عملنا بمعزل عن الآخرين، وسوف يدمّروننا ونورنا. لا يهمنا جسدنا، إنما نورنا...

بلى يهمنا. أول مرة يهمنا جسدنا. هذا السلك قطعة منّا، كأنه وريد منزوع من بدننا، ينبض فيه دمنا. أفخورون نحن بخيط المعدن، أم بيدينا اللتين صنعتاه، أم أن ثمة فاصلاً بين الاثنين؟

نمدّ ذراعينا. عرفنا أول مرة قوة ذراعينا. ووقعت في خاطرنا فكرة غريبة: تساءلنا أول مرة في حياتنا عن شكلنا. فلا يجوز للبشر رؤية وجوههم، ولا يجوز أن يسألوا إخوتهم عن أشكالهم، لأنه من الشر أن نهتم بوجوهنا أو بأبداننا. لكننا الليلة، لسبب لا نستطيع فهمه، نودّ لو أننا نعلم ما شكلنا.

الفصل السادس

لم نكتب منذ ثلاثين يومًا. ثلاثون يومًا لم نأتِ إلى هنا، إلى نفقنا. قُبض علينا.

حدث الأمر في آخر ليلة كتبنا فيها. نسينا في تلك الليلة أن نراقب رمل الساعة الذي نعرف منه أن ثلاث ساعات قد مضت، وأن الوقت حان للعودة إلى مسرح المدينة. ولمّا تذكرنا كان الرمل قد نفد.

هرعنا إلى المسرح. لكننا وجدنا الخيمة الكبيرة رمادية صامتة مظلمة. وشوارع المدينة من حولنا مظلمة خالية. لو أننا رجعنا إلى نفقنا واختبأنا فيه فسوف يعثرون علينا، والنور معنا. فقررنا المسير إلى دار الكنّاسين.

استجوبَنا مجلس الدار. نظرنا إلى وجوه أفراده، فلم نجد فيها فضولاً، ولا غضبًا، ولا رحمة. ولهذا عندما سألنا أكبرهم: أين كنتم؟ فكّرنا بصندوقنا الزجاجي وضوئنا، ونسينا كل شيء آخر. أجبنا: لن نخبركم.

لم يسألنا أكبرهم سؤالاً ثانيًا. التفتوا إلى اثنين أصغر منهم، وقالوا بصوت ضجر: خذوا أخونا مساواة ٢٥٢١-٧ إلى مقر الحبس التأديبي.

اجلدوهم حتى يعترفوا.

فأخذونا إلى الغرفة الحجرية في مقر الحبس التأديبي. وليس في تلك الغرفة نوافذ، وهي خالية إلا من عمود حديدي. وقف اثنان من الرجال بجانب العمود، لا يلبسون إلا مآزر وأقنعة جلدية تخفي وجوههم. غادر أولئك الذين أحضرونا، وتركونا في عهدة اثنين من القضاة يقفون في زاوية الحجرة، يبدو عليهم الهُزال والضعف، ولهم شعر أشيب وظهر محدودب. أشاروا إلى الاثنين ذوي القوة الذين يضعون الأقنعة.

شقّوا ثيابنا، وطرحونا على ركبتينا، وأوثقوا يدينا بالعمود الحديدي.

شعرنا مع الجلدة الأولى كأن عمودنا الفقري قد انكسر نصفين. وكفّت الجلدة الثانية ألم الأولى فلم نحس بشيء، ثم انقضّ الألم الممض على حنجرتنا، وتأجّجت النار في رئتينا، وانحبس عنّا الهواء. لكننا لم نصرخ.

صفّر السوط كالرياح العاجّة. حاولنا عدّ الجلدات، لكننا ما لبثنا أن أضعنا العد. كنا نعرف أن الضربات تقع على ظهرنا، لكننا فقدنا الإحساس بظهرنا. ظلّت شبكة مشتعلة تتراقص أمام عينينا، ولم نفكر بشيء سوى تلك الشبكة، الشبكة، شبكة من المربعات الحمراء، ثم أدركنا أننا ننظر إلى مربعات الشبكة الحديدية المثبتة على الباب، وثمة مربعات كذلك من حجارة على الجدران، والمربعات التي يرسمها السوط على ظهرنا، المربعات تمزع جلدنا وتمزّقه.

ثم رأينا قبضة أمامنا. لكمت ذقننا فارتدّ إلى الخلف، ورأينا الزبد الأحمر من فمنا على الأصابع الهزيلة، وسألونا القضاة: أين كنتم؟

لكننا أشحنا رأسنا، وأخفينا وجهنا وراء يدينا المقيدتين، وعضضنا لساننا.

صفّر السوط مرة ثانية. تساءلنا من هذا الذي يرش رماد الجمر الحار على الأرض، لأننا رأينا قطرات حمراء لامعة على الأحجار من حولنا.

بعدها لم ندرك أي شيء، ما عدا صوتين ينخران وعينا، يسكت واحد فيتكلم الآخر، على الرغم أننا نعلم أن دقائق كثيرة تفصل بين كلامهم: أين كنتم أين كنتم أين كنتم أين كنتم؟...

تحركت شفتانا، لكن الصوت تقهقر إلى مؤخرة حنجرتنا، وما حمل إلا هذه الكلمات: النور... النور... النور...

لم ندرك شيئًا بعدئذ.

فتحنا عينينا، ونحن مستلقون على بطننا على حجر الزنزانة. نظرنا إلى يدين مرميّتين على الأحجار على مبعدة منّا. حرّكناهما فعلمنا أنهما يدانا. لكننا لم نستطع تحريك جسدنا. ثم ابتسمنا، لأننا تذكرنا النور، وأننا لم نخنه.

حُبسنا في زنزانتنا أيامًا عديدة. كان الباب يُفتح مرتين كل يوم، مرة للرجال الذين يحضرون لنا الخبز والماء، ومرة للقضاة. جاء إلى زنزانتنا قضاة كثيرون، الأحقر شأنًا في البداية، ثم الأرفع قدرًا في المدينة. كانوا يقفون أمامنا بشملاتهم البيضاء ويسألون: أمستعدون للاعتراف؟

كنّا نهزّ رأسنا ونحن مستلقون أمامهم على الأرض. ثم يغادرون.

كنّا نعدّ كل يوم وكل ليلة بعد مرورها. حتى علمنا أن علينا الفرار الليلة، لأن اجتماع مجلس العلماء الدولي في مدينتنا غدًا.

لم يكن صعبًا الفرار من مقر الحبس التأديبي. أقفال الأبواب قديمة ولا حرّاس في المكان. ما الحاجة إلى الحرّاس إن لم يعصِ البشر المجالس قط، ولم يفرّوا من أي مكان أُمروا بالمكث فيه؟ شفي جسدنا واستردّ عافيته بسرعة. ارتطمنا بالباب فانكسر. تسللنا في الممرات المظلمة، ومن ثم إلى الشوارع المظلمة، حتى بلغنا نفقنا.

أشعلنا الشمعة، فعرفنا أنهم ما اكتشفوا مكاننا، وأن شيئًا لم يمس. صندوقنا الزجاجي على الفرن البارد أمام ناظرنا، كما تركناه آخر مرة. وما تعنينا ندوب ظهرنا الآن؟

غدًا، في وضح النهار، سنأخذ صندوقنا ونترك نفقنا مفتوحًا، ونسير في الشوارع إلى دار العلماء. سنضع أمامهم أعظم هدية قُدّمت إلى البشر. سوف نخبرهم الحقيقة. سوف نعطيهم اعترافنا، هذه الصفحات التي كتبناها. سوف نشد يدينا بأيديهم، ونعمل معًا، بقوة السماء، لمنفعة البشرية. سلامًا عليكم إخوتنا! غدًا تقبلوننا في جماعتكم، ولن نكون بعدها منبوذين. غدًا نكون واحدًا منكم. غدًا...

الفصل السابع

الظلام شديد هنا في الغابة. نسمع حفيف أوراق الشجر فوق رأسنا، تسودّ كلما لفظت السماء ذهبها. حزاز الأرض ليّن دافئ. سوف ننام على هذا الحزاز ليالي كثيرة، حتى تأتي الوحوش فتنهش جسدنا. لا سرير لنا اليوم إلا الحزاز، ولا مستقبل إلا نهش الوحوش.

هرمنا الآن، وإن كنّا صغارًا هذا الصباح، حين حملنا صندوقنا الزجاجي، وقطعنا به شوارع المدينة إلى دار العلماء. لم يوقفنا بشر، فلم يكن في طريقنا مَن كانوا في مقر الحبس التأديبي، والآخرون لم يكونوا على علم. ولم نُمنع من عبور البوابة. فسرنا في الممرات الخالية ودخلنا القاعة العظمى، حيث وجدنا مجلس العلماء الدولي جالسون في اجتماع وقور.

ما رأينا عند دخولنا إلا السماء الزرقاء المشرقة من النوافذ الواسعة. ثم رأينا العلماء جالسين حول طاولة طويلة، كأنهم ندف سحاب متراكمة في سماء رحيبة. من بينهم أفراد نحفظ أسماءهم، وآخرون من بلاد بعيدة لا نعرف أسماءهم. رأينا فوق رؤوسهم لوحة ضخمة معلّقة على الجدار، فيها الرجال العشرون الشهيرون الذين اخترعوا الشمعة.

استدارت رؤوس المجلس كلهم عند دخولنا. لم يعرف حكماء الأرض العظماء ما نحن، وتطلّعوا إلينا في عجب وفضول، كأننا معجزة. لم يخفَ علينا أن ثيابنا مقطّعة وملوّثة ببقع دم جاف. رفعنا ذراعنا اليمنى وقلنا: تحياتنا لكم، إخوتنا الكرام من مجلس العلماء الدولي!

عندها تكلّم مشاركة ٠٠٠٩-٠، وهو كبير المجلس وأكثرهم حكمة، فسألوا: مَن تكون يا أخانا؟ فلا نظنّك من العلماء.

أجبنا: اسمنا مساواة ٢٥٢١-٧، ونحن كنّاس في هذه المدينة.

وكأن رياحًا هائجة ضربت القاعة، فقد هتف العلماء في وقت واحد، وكانوا فزعين غاضبين: كنّاس! كنّاس يدخلون مجلس العلماء الدولي! أمر لا يُصدّق! هذه مخالفة لكل القوانين وانتهاك لكل الأعراف!

لكن كنّا نعرف كيف نهدئ من روعهم. قلنا: إخوتنا! لا تبالوا بنا، ولا عليكم من جريمتنا. لا شيء يهم غير إخوتنا. لا تشغلوا فكركم بنا، فنحن نكرة، لكن أنصتوا إلى كلماتنا، فقد حملنا إليكم هدية لم تُعطَ للبشر قط. اسمعونا، فنحن نحمل مستقبل البشرية في أيدينا.

فاستمعوا.

وضعنا صندوقنا الزجاجي على الطاولة. حدّثناهم عنه، وعن رحلتنا المضنية، وعن نفقنا، وعن هروبنا من مقر الحبس التأديبي. ما تحركت يد في تلك القاعة ونحن نروي، ولا طرفت عين. أدخلنا الأسلاك في الصندوق، فانحنوا كلهم وتسمّروا يراقبون. ثبّتنا نفسنا وعيننا لا تفارق السلك. وببطء، ببطء كأن الدم يدفق في السلك، اهتزّت شعلة

حمراء فيه. ثم أضاء السلك.

لكن الهلع داهم أفراد المجلس. فهبّوا قافزين من مقاعدهم، وفرّوا من الطاولة، وتجمّعوا عند الجدار، متكوّمين على بعضهم، يداري بعضهم بعضًا.

نظرنا إليهم وضحكنا، قلنا: لا تخشوا شيئًا يا إخوتنا. في هذه الأسلاك قوة عظيمة، لكنها قوّة مروّضَة. إنها لكم. نحن نمنحها لكم.

وبرغم قولنا فإنهم لم يتحركوا.

هتفنا: نقدّم لكم قوة السماء! نقدّم لكم مفتاح الأرض! خذوها واجعلونا واحدًا منكم، أقلّكم علمًا. دعونا نعمل معًا، ونسخّر هذه القوة، ونجعلها تخفّف كدح البشر. فلنرمِ شموعنا ومشاعلنا. ولنغرق مدننا بالنور. فلنكرم البشر بنور جديد!

لمحنا في نظراتهم لنا ما أثار توجّسنا فجأة. رأينا في عيونهم ركودًا وبلادةً وشرًا.

هتفنا: يا إخوتنا! أما عندكم ما تقولونه لنا؟

تقدّم مشاركة ٠٠٠٩-٠ عندئذ إلى الطاولة، وتبعهم الآخرون. قال مشاركة ٠٠٠٩-٠: بلى، لدينا الكثير لنقوله.

أسكن صوتهم كل صوت في القاعة، وأخرس نبض قلبنا.

قال مشاركة ٠٠٠٩-٠: بلى، لدينا ما نقول لبائسين انتهكوا كل القوانين ويفاخرون بسوء فعالهم! كيف تجرؤون على الظنّ أن في

عقلكم حكمة أسمى من عقول إخوتكم مجتمعين؟ وإن كان المجلس قد أمركم أن تكونوا كناسًا، فكيف تجرؤون على الاعتقاد أن لكم منفعة أكبر للبشر من كنسكم الشوارع؟

قال مؤاخاة ٣٤٥٢-٩: كيف تجرؤون يا منظف المجاري على أن تفكروا بنفسكم وحدكم وبأفكاركم لا بأفكار الكل؟

قال ديموقراطية ٦٩٩٨-٤: سوف يكون عقابكم المحرقة.

قال إجماع ٣٣٠٤-٧: لا، بل سوف يجلدون حتى لا يترك السوط لحمًا.

قال مشاركة ٠٠٠٩-٠: لا. ليس لنا أن نقرر الجزاء يا إخوتنا. فلم تُقترف هذه الجريمة من قبل، ولا يجوز لنا أن نحكم عليهم. وليس الحكم كذلك لمجلس صغير. لذلك فإننا سوف نقدّم هذا المخلوق إلى المجلس الدولي نفسه، وسيكون حكمهم نافذًا.

نظرنا إلى وجوههم واستعطفناهم: إخوتنا! أنتم محقّون. فليكن حكم المجلس نافذًا على جسدنا. فلا يعنينا هذا الأمر. لكن النور؟ ماذا ستفعلون بالنور؟

نظر إلينا مشاركة ٠٠٠٩-٠ وابتسموا. قالوا: أتراكم تعتقدون أنكم اكتشفتم قوة جديدة؟ أتظن أن إخوتكم جميعًا يفكرون كما تفكرون أنتم؟

أجبنا: لا.

فقال مشاركة ٠٠٠٩-٠: ما لا يفكر به كل البشر لا يمكن أن يكون صحيحًا.

سأل دولي ٥٥٣٧-١: أعملتم على هذا وحدكم؟

أجبنا: نعم.

قال دولي ٥٥٣٧-١: ما لا يُصنع بيد الجماعة لا يمكن أن يكون خيرًا.

قال تكافل ١١٦٤-٨: ابتُلي كثير من البشر في دور العلماء بأفكار جديدة غريبة في السنوات الماضية، لكن حينما يصوّت غالبية إخوتهم العلماء بنبذ الفكرة، فإنهم ينبذونها عن أذهانهم كما ينبغي لكل البشر فعله.

قال تحالف ٧٣٤٩-٦: لا منفعة في هذا الصندوق.

قال تآلف ٢٦٤٢-٩: إن كان ما يدّعونه بهذا الصندوق حقيقة فإن الخراب سيحلّ بإدارة الشموع. إن الشمعة نعمة عظيمة للبشرية، كما أجمع بذلك كل البشر. وعليه فلا يمكن تدميرها استجابة لرغبة فرد.

قال إجماع ٩٩١٣-٢: سوف يقوّض هذا خطط المجلس الدولي. ومن دون خطط المجلس الدولي لا تشرق الشمس. استغرق جمع الموافقات من المجالس كافة لاختراع الشمعة، وتحديد العدد الذي نحتاج إليه، وتغيير الخطط الدولية لاعتماد الشموع بدلاً من المشاعل خمسين عامًا. وقد أثّر ذلك في حياة آلاف الآلاف من البشر في بلاد كثيرة. لا يُعقل أن نبدّل الخطط ثانية خلال مدة وجيزة.

قال تماثل ٠٣٠٦-٥: وإن كان هذا الشيء سيخفّف من كدح البشر، فهو شر عظيم، لأن لا سبب لوجود البشر إلا لكي يكدحوا في منفعة الآخرين.

نهض عندئذ مشاركة ٠٠٠٩-٠ وأشاروا إلى صندوقنا، قالوا: يجب أن يُدمّر هذا الشيء.

وهتف الآخرون بصوت واحد: يجب أن يُدمّر!

فانقضضنا على الطاولة.

أمسكنا صندوقنا في لهفة، ودفعناهم عنّا ثم هرعنا إلى النافذة. استدرنا ونظرنا إليهم للمرة الأخيرة، واختنق صوتنا في حنجرتنا بغضب لا يمكن أن يتملّك بشريًا. صحنا: حمقى! حمقى! حمقى ملعونون!

ضربنا زجاج النافذة بقبضتنا، وقفزنا وسط كسر الزجاج المنهمر.

سقطنا، لكننا لم ندع الصندوق يفلت من يدينا. ثم عدونا. عدونا بلا هدى، والبشر والبيوت تمرّ كالأطياف بجانبنا، في تيار بلا معالم. والشارع لم يبدُ لنا منبسطًا، بل يتدانى أمامنا، يلاقينا. وانتظرنا أن تبرز الأرض وتلطم وجهنا. لكننا عدونا. لم ندرِ أين مقصدنا. كل ما كنا نريده هو أن نركض، نعدو إلى نهاية العالم، نعدو إلى منتهى أيامنا.

حتى وجدنا نفسنا مستلقين على تراب رطب وأننا توقفنا عن العدو. أشجار شاهقة مثلها لم نرَ من قبل تنتصب خلفنا في صمت مهيب. عرفنا حينئذ. نحن في الغابة المجهولة. لم ننوِ المجيء إلى هنا، لكن المنطق استقر في قدمينا، وقدمانا حملتانا إلى الغابة المجهولة على الرغم عنّا.

صندوقنا الزجاجي ملقى بجانبنا. زحفنا نحوه، أحطناه، وجهنا مغطى بذراعينا، واستقرينا هامدين.

ظللنا متمددين طويلاً. ثم نهضنا، أخذنا صندوقنا، وتوغلنا إلى الغابة.

لم يعننا كثيرًا أين نذهب. وكنّا واثقين أن الآخرين لن يلحقوا بنا، لأنهم لا يدخلون الغابة المجهولة أبدًا. لا شر نخشاه منهم. والغابة تتخلص من ضحاياها. ولا الغابة خشينا أذاها. ما أردنا إلا الابتعاد عن المدينة، وعن الهواء الذي يختلط بهواء المدينة. فأكملنا السير، الصندوق بين ذراعينا، وقلبنا فارغ.

نحن هالكون. سنقضي ما بقي من أيامنا وحيدين. وقد علمنا أي فساد يستورده الانعزال. قد نزعنا أنفسنا من الحقيقة، والحقيقة هي إخوتنا، ولا طريق لعودتنا، ولا سبيل لتوبتنا.

نعلم كل هذا، ومع ذلك فإننا لا نهتم. لا يهمنا شيء على الأرض. نحن متعبون.

لولا أن الصندوق الزجاجي بين ذراعينا كأنه قلب حي يمدّنا بالقوة. كذبنا على نفسنا. لم نصنع هذا الصندوق لننفع به إخوتنا. صنعناه لأننا نريد أن نصنعه. هو أسمى لدينا من إخوتنا كافة، وحقيقته أبلغ من حقيقتهم. ولِمَ نتفكر بهذا؟ ما تبقى لنا من الأيام قليل. نحن نسير نحو أنيابٍ تتربص بنا في مكان ما وسط هذه الأشجار الباسقة الصامتة. ليس عندنا ما نندم عليه.

ثم داهمنا ألم بالغ، أول وجع يصيبنا، ولم يصبنا غيره. تذكرنا الذهبية. تذكرنا الذهبية اللاتي لن نراهن مرة أخرى. ثم سكن الوجع. هذا أفضل. صرنا من الملعونين. خيرًا يفعلن لو الذهبية ينسين اسمنا، والجسد الذي حمل ذاك الاسم.

الفصل الثامن

كان يومًا يفيض أعاجيب، هذا اليوم، أول أيامنا في الغابة.

أيقظنا شعاع شمس وقع على وجهنا. أردنا أن نهبّ واقفين، كما هببنا على قدمينا كل صباح في عمرنا، لكننا تذكرنا فجأة أن الجرس لم يقرع، وأن لا جرس يُقرع في أي مكان حولنا. استلقينا على ظهرنا، مددنا ذراعينا، نظرنا إلى السماء. لكل ورقة حدود فضية ترتعش، وكل الأوراق تتماوج كنهر من خضرة ونهار يتدفق فوقنا.

لم نرد أن نتحرك. خطر لنا أننا نستطيع الاستلقاء هكذا كما نحب المدة التي نريدها، وضحكنا عاليًا لهذه الفكرة. نستطيع أيضًا أن ننهض أو نجري أو نقفز أو نسقط. وكنا نفكّر أن هذه الأشياء غير منطقية، لكننا وجدنا جسدنا يثب وثبة واحدة من موضعه قبل أن ندرك ما فعلناه. امتدّت ذراعانا بتلقاء نفسها، ودار جسدنا ودار، حتى ارتفع تيار حرّك أوراق الشجيرات. ثم أمسكت يدانا غصنًا ورفعتنا إلى أعلى الشجرة، بلا هدف سوى رغبتنا في معرفة قوة جسدنا. انكسر الغصن فسقطنا

على حزاز ناعم كالوسادة. ثم تقلّب جسدنا وتقلّب، وقد فقد سلامة المنطق، على حزاز الأرض، الأوراق الجافة تلتصق بملابسنا وبشعرنا وبوجهنا. وسمعنا فجأة صوت ضحكاتنا، ضحكاتنا العالية، ضحكنا كأن لا طاقة لنا إلا في ضحكنا.

أخذنا صندوقنا الزجاجي، وتوغلنا في الغابة. توغلنا فيها، نكسر الأغصان التي تعترض طريقنا، كأننا نسبح في بحر من الأوراق، والشجيرات كالموجات، ترتفع وتنخفض وترتفع مرة أخرى، ترمي رشّاتٍ خضراء إلى قمم الأشجار. وسّعت الأشجار لنا طريقًا، تدعونا للتقدّم. كأن الغابة ترحّب بنا. فتقدمنا، بلا تردد، بلا اهتمام، بلا إحساس ما عدا غناء جسدنا.

لم نتوقف إلا عندما أحسسنا بالجوع. رأينا طيورًا على الأغصان، تطير من بين خطواتنا. أمسكنا حجرًا وقذفناه كالسهم على أحدها. فسقط على الأرض. أشعلنا نارًا، وطبخنا الطير، وأكلناه، ولم نذق طعامًا أطيب منه. خطر لنا أن رضا عظيمًا نستطيبه من الطعام الذي نحتاج إليه ونحصل عليه بيدينا. فتمنينا أن نجوع ثانية قريبًا، لعلنا نعرف هذا الفخر الجديد الغريب في تناول الطعام.

وظللنا نسير. ووصلنا إلى جدول يمتد كلوح زجاج بين الشجر. وقد بلغ من ركوده أننا لم نحسبه ماءً، بل قطع في وجه الأرض، تنمو فيه الأشجار إلى الأسفل، مقلوبة، وتظهر السماء في قاعه. انحنينا إلى جانب الجدول لنشرب. فأحجمنا، لأننا رأينا في السماء الزرقاء أسفل منّا وجهنا أول مرة.

لم نستطع الحركة ولا التنفس. لأن وجهنا وجسدنا جميلان. وجهنا لا يشبه وجوه إخوتنا، ولم نشعر بالشفقة حين نظرنا إليه. جسدنا لا يشبه أجساد إخوتنا، فأطرافنا مشدودة وقوية ونحيلة وصلبة. هذا الكائن الذي يطل علينا من الجدول كائن نستطيع الثقة به، ولا شيء نخشاه من هذا الكائن.

ظللنا نسير حتى غربت الشمس. ولمّا تجمّعت الظلال بين الأشجار، اخترنا تجويفًا محفورًا بين الجذور كي ننام فيه الليلة. وتذكرنا فجأة وللمرة الأولى هذا اليوم أننا ملعونون. تذكرنا، فضحكنا.

نحن نكتب هذا على الورق الذي دسسناه في ثوبنا مع الأوراق التي كتبنا فيها من قبل وأحضرناها معنا لمجلس العلماء الدولي، لكننا لم نعطهم إياها قط. لدينا كلام كثير نود أن نقوله لنفسنا، ونأمل أن نجد كلماته في الأيام القادمة. الآن، لا نستطيع الكلام لأننا لا نستطيع الفهم.

الفصل التاسع

لم نكتب أيامًا كثيرة. لم نجد الرغبة في الكلام. لأننا لم نحتج إلى كلمات كي نتذكر الذي حصل لنا.

سمعنا في يومنا الثاني في الغابة وقع خطوات خلفنا. اختبأنا بين الشجر وانتظرنا. تدانت الخطوات. ثم رأينا ثنايا ثوب أبيض بين الأغصان وبريقًا ذهبيًّا.

وثبنا إلى الأمام، وهرعنا نحوهم، ثم وقفنا ننظر إلى الذهبية.

رأيننا، فانقبضت كفاهن وسحبتا ذراعيهن إلى الأسفل، كأنهن يتمنين أن يثبتن بثقل ذراعيهن، وجسدهن يتمايل يمينًا وشمالاً. ولم يقدرن على الكلام.

لم نجرؤ على الاقتراب منهن. سألناهن بصوت مرتعش: ما جلبكن إلى هنا أيتها الذهبية؟

ما وجدن إلا الهمس فقلن: قد وجدناكم...

سألنا: ما جلبكن إلى الغابة؟

رفعن رأسهن، والفخر ينطق في صوتهن، وأجبن: قد لحقنا بكم.

لم نجد كلامًا، وقلن: سمعنا أنكم ذهبتم إلى الغابة المجهولة، والمدينة بأسرها ما لها حديث إلا عن هذا. وفي ليلة اليوم الذي علمنا به الخبر فررنا من دار الفلاحات. وجدنا آثار قدميكم في السهل الذي لا يقطعه بشر. فتبعناها، ودخلنا إلى الغابة، واستدللنا على الطريق من الأغصان التي كسرها مروركم.

كان ثوبهن الأبيض ممزقًا، والأغصان قد جرّحت ذراعيهن، لكنهن كنّ يتكلمن كأنما لم يعين هذا، ولم يلحظن تعبهن، ولا خوفهن.

قلن: لحقنا بكم، ونحن تابعات لكم حيثما اتجهتم. إن داهمكم الخطر، فسوف نواجهه معكم. وإن كان الموت مصيركم، فسوف نموت معكم. أنتم ملعونون، ولا نرضى إلا أن نشارككم اللعنة.

رفعن رأسهن ينظرن إلينا، صوتهن خفيض، في صوتهن المرارة والظفر: عيناكم مشتعلتان، لكن ليس لإخوتنا أمل ولا نار. فمكم قُدّ من رخام، لكن إخوتنا ضعفاء أذلاء. رأسكم شامخة وإخوتنا منكسون. أنتم تمشون وإخوتنا يزحفون. يطيب لنا أن نُلعن معكم على أن نعيش عيشة رضية مع إخوتنا كافة. افعلوا بنا ما شئتم لكن لا تبعدونا عنكم.

ثم ركعن ونكسن رأسهن الذهبي لنا.

لم نفكر بما فعلنا قبل أن نفعله. انحنينا لنرفع الذهبية على قدميهن، لكننا لما لمسناهن، كأن شيئًا لوث عقلنا. عانقنا جسدهن ولثمنا فمهن. خرج النفس مرةً من شفتي الذهبية، وكان تنهيدة، وذراعيهن تطوّقنا.

وقفنا معًا دقائق طويلة. وكنا مذعورين كيف قضينا من عمرنا واحدًا وعشرين عامًا ما عرفنا فيها أي سعادة هذه التي جُمعت لبني البشر.

قلنا: يا أعزّ البشر. لا تخشين من هذه الغابة. لا خطر في الانعزال. ولسنا في حاجة إلى إخوتنا. فلننسَ خيرهم وشرنا، ولننسَ كل أمر إلا أننا معًا، وأن السعادة ملك أيدينا. أعطينا يديكن. وانظرن إلى الأمام. فهذا هو عالمنا أيتها الذهبية. عالم غريب مجهول، لكنه لنا وحدنا.

ثم توغلنا في الغابة، ويدهن بيدنا.

وعلمنا تلك الليلة أن عناق جسد امرأة في ذراعينا ليس بالأمر القبيح المخزي، إنما هو متعة مُنحت للبشر.

ظللنا نسير أيامًا عديدة. لا نهاية للغابة، ولا نريد لها أن تنتهي. كل يوم يزيد على عدة الأيام التي تفصلنا عن المدينة هو نعمة عظيمة.

صنعنا قوسًا وسهامًا كثيرة. وكنا نصيد من الطيور أكثر مما نحتاج إليه في طعامنا، ونجد الماء والفاكهة في الغابة. ولما يحل الليل نتخيّر بسطةً ونقيم حلقة من نيران حولها. ننام في منتصف هذه الحلقة، فترد عنّا هجوم الوحوش. نرى أعينهم، خضراء صفراء كأنها جمر، ترصدنا من بين فروع الشجر. تخبو النيران من حولنا، كأنها تاج من جواهر، والدخان يحوم في الهواء، في أعمدة صيّرها ضوء القمر زرقاء. ننام في منتصف الحلقة، ذراعا الذهبية تحيطان بنا، ورأسهن ساكن على صدرنا.

سوف نتوقف عن السير يومًا، وسوف نبني بيتًا، عندما نكون قد قطعنا مسافة كافية. لسنا على عجلة. الأيام أمامنا بلا نهاية، مثل الغابة.

لا يسعنا فهم هذه الحياة الجديدة التي وجدناها، وهي مع ذلك واضحة يسيرة. عندما تحيّرنا الأسئلة نعجّل في خطانا، ثم نلتفت وننسى كل شيء حين نرى الذهبية يتبعننا. ظلال الأوراق تلتقي على ذراعيهن، وهن يزحن الأغصان عن طريقهن، والشمس تسطع على كتفيهن. جلد ذراعيهن كضباب أزرق، ولكن كتفيهن أبيضان مشعّان، كأن الضوء لا يسطع من فوق، إنما يشرق من جسدهم. نراقب الورقة التي حطّت على كتفهن، واستقرّت على منحنى رقبتهن، ومن فوقها قطرة ندى تلتمع كالدّرة. اقتربن منّا وتوقفن، ضحكن وهن يعلمن بم نفكر، وانتظرن طائعات، ودون سؤال، حتى طاب لنا أن نستدير ونكمل المسير.

نسير ونبارك الأرض التي نطؤها بأقدامنا. لكن الأسئلة ما تنفك ترجع إلينا، فنمشي في صمت. إن كان هذا ما لقيناه هو فساد الانعزال، فكيف يتمنى البشر شيئًا غير هذا الفساد؟ إن كان هذا هو الفجور العظيم المنتظر من اعتزال البشر، فما الخير؟ وما الشر؟

كل ما يأتي من الجماعة فهو خير. كل ما يأتي من الفرد فهو شر. هكذا تعلمنا من أنفاسنا الأُولى. وعلى الرغم من أننا خالفنا القوانين، فإننا ما شككنا يومًا بسلامة المعتقد. الآن ونحن نسير في الغابة بدأنا نتعلم الشك.

لا حياة للبشر إلا في شقائهم لما فيه الخير لإخوتهم. لكننا لم نكن أحياء يوم كنا نكدح لإخوتنا، ما كنا إلا متعبين. لا سعادة للبشر إلا في السعادة التي يشاركهم فيها إخوتهم. لكننا ما تعلّمنا السعادة إلا من القوة التي أطلقتها أسلاكنا، ومن الذهبية. وكلا السعادتين نحن وحدنا من نملكها، نحن وحدنا من نشعر بها، ليس لها أي علاقة بإخوتنا، ولا

تخصّهم بأي طريقة. بهذا نتفكر.

ثمة خطأ في تفكير البشر، خطأ مفزع. ما هذا الخطأ؟ لا نعلم، لكن المعرفة تناضل في داخلنا، تجاهد للانبعاث.

اليوم، الذهبية وقفن بغتة عن المشي وقلن: نحن نحبك.

لكنهن عندئذ قطّبن جبينهن وهززن رأسهن، ثم نظرن إلينا عاجزات. همسن: لا. ليس هذا ما أردنا أن نقوله.

صمتن لحظات، ثم تكلّمن ببطء، وبكلمات مترددة، مثل كلمات الأطفال حين يتكلمون أول مرة: نحن واحدة... وحدنا... ولا غيرنا... ونحن نحبكم أنتم... أنتم واحد... وحدكم... ولا غيركم.

نظرنا إلى أعين بعضنا، وعلمنا أن نفحة المعجزة قد مستنا، ثم اختفت، تركتنا نتحسّس في الظلام عبثًا.

نحن بعد ذلك تائهون، معذّبون، نبحث عن كلمة فلا نجدها.

الفصل العاشر

نحن جالسون إلى طاولة، نكتب على ورق صُنع منذ آلاف السنين. الضوء خافت، ولا نرى من الذهبية إلا خصلة من ذهب على وسادة سرير أثري. هذا هو بيتنا.

عثرنا عليه اليوم، مع شروق الشمس. كنا قطعنا سلسلة جبلية أيامًا طويلة، في غابة يتخللها جُرف صخرية، وكنّا إذا وصلنا منبسطًا صخريًّا أجرد رأينا قممًا عظيمة ناحية الغرب، ومن شمالنا، ومن جنوبنا، على امتداد بصرنا. قمم حمراء ترابية، تغذّيها عروق الغابات المخضرّة، والضباب الأزرق كالخمار يكلّل رؤوسها. لم نسمع عن هذه الجبال من قبل، ولم نرَ مواضعها معلّمة على أي خريطة. حمتها الغابة المجهولة من المدن، ومن رجال المدن.

تسلّقنا دروبًا لا تجرؤ الماعز الجبلية على تخطّيها. تتدحرج الأحجار من تحت أقدامنا، فنسمعها تضرب الصخور أسفل منّا، في سفوح الجبال، ويرجع صدى كل ضربة في حينه، وبعد أن يستقر الحجر بزمن طويل. ومع هذا فقد تسلقنا، لأننا نعلم أن لا بشر يقدر على اقتفاء خطانا ولا الوصول إلينا هنا.

ثم رأينا اليوم، مع إشراقة الشمس، شعلةً بيضاء بين الشجر، على رأس قمة شاهقة أمامنا. حسبناها نارًا فتوقفنا. لكن الشعلة لم تتحرك، وإن كانت تعمي البصر ببريقها الذي يشبه المعدن المذاب. فتسلقنا الصخور كي نبلغها. وهناك، أمام أعيننا، وعلى قمة مسطّحة، والجبال الأخرى تحيط بها، وجدنا بيتًا ما رأينا مثله من قبل، أما النار البيضاء فكانت انعكاس ضوء الشمس على نوافذه.

كان البيت ذا طابقين وسقف مسطّح، كأنه أرضيته. وله من النوافذ على جدرانه أكثر ما له من جدران، والنوافذ تلتفّ حول زواياه. لم نفهم كيف يظل هذا البيت منتصبًا. الجدران صلبة وناعمة، من ذاك الحجر الذي لا يشبه الحجر، كالذي رأيناه في نفقنا.

أدرك كلانا الأمر دون أن نتكلم: هذا بيت من بقايا الزمن الذي يحرم الكلام عنه. حفظته الأشجار من آثار الدهر وتقلّب المناخ، ومن الرجال الذين هم أطغى من الدهر والمناخ. التفتنا إلى الذهبية وسألناها: أأنتن خائفات؟

فهززن رأسهن أن لا. فاتّجهنا إلى الباب، وفتحناه، وتخطّينا عتبته إلى البيت الذي من الزمن الذي يحرم الكلام عنه.

سوف نحتاج إلى كل أيام مستقبلنا وسنينه لنرى، لنتعلم، لنفهم الأشياء التي في هذا البيت. ما استطعنا اليوم إلا أن ننظر ونحاول أن نصدّق ما تراه أعيننا. سحبنا الستائر الثقيلة عن النوافذ، ورأينا أن الحجرات صغيرة، وقدّرنا أن البيت لا يسع أكثر من اثني عشر فردًا. وتعجّبنا أن سُمح للبشر ببناء بيت لا يسع غير اثني عشر فقط.

ما رأينا قط حجرات يغمرها النور كهذه. أشعة الشمس تتراقص على ألوان، وألوان، وألوان لم نتخيل تعدّدها، نحن الذين لم نرَ في حياتنا بيوتًا إلا البيضاء والبنية والرمادية. وجدنا قطعًا ضخمة من زجاج معلّقة على الجدران، لكنها ليست من زجاج، فإننا حين نظرنا فيها أبصرنا جسدينا، وكل الأشياء التي وراءنا، كما لو أننا نراه على سطح بحيرة. ثمة أشياء غريبة لم نرها من قبل، ولا نعرف فيم استخدامها. وفي كل مكان في البيت، في كل حجرة، كرات زجاجية، تلك الكرات الزجاجية التي تحتوي على أسلاك معدنية في جوفها، كتلك التي رأيناها في نفقنا.

وجدنا قاعة النوم، ووقفنا عند عتبة بابها في ذهول. فالحجرة صغيرة وليس فيها سوى سريرين. لم نعثر على أسرّة غيرها في البيت، فعلمنا أن اثنين فقط سكناه، فتجاوز ذلك حدود استيعابنا. أي عالم كان يعيش فيه أولئك البشر، البشر الذين عاشوا خلال الزمن الذي يحرم الكلام عنه؟

وجدنا ثيابًا، وخرجت من فم الذهبية شهقة لمرآها. فلم تكن ثيابًا بيضاء ولا شملات بيضاء، بل كانت من جميع الألوان، لا يتشابه اثنان منها. بعضها تفتّتت وأحالته تقليباتنا ترابًا، لكن بعضها من قماش أثقل، فكانت ناعمة وجديدة بين أصابعنا.

وجدنا غرفة ذات جدران مغطاة بالأرفف، تحمل صفوفًا من المخطوطات، ترتفع من الأرض حتى السقف. ما سبق أن رأينا هذا العدد منها، ولا بهذا الشكل العجيب. لم تكن المخطوطات مطوية رقيقة، إنما تغلّفها أغطية من قماش وجلد، والحروف في صفحاتها صغيرة ومنسّقة للغاية، حتى إننا تفكّرنا بالرجال الذين يحسنون دقة

الخط هذه. تصفحنا الصفحات، رأينا أنها مكتوبة بلغتنا، لكننا قرأنا كلمات كثيرة لم نفهمها. غدًا نقرأ هذه المخطوطات.

بعد أن تفحَّصنا كل حجرات المنزل نظرنا إلى الذهبية، وقد عرف كلانا الفكرة التي تجول في عقلينا.

قلنا: لن نهجر هذا البيت قط، ولن ندعه يُؤخذ منا. هذا هو بيتنا ونهاية رحلتنا. هذا بيتكن أيتها الذهبية وبيتنا، وليس لأي بشر مهما كانوا وحيثما جاءوا أي حق فيه. لن نقبل أن نشارك به آخرين، كما لا نتشارك معهم سعادتنا، ولا حبنا، ولا جوعنا. وهكذا سيكون إلى نهاية عمرنا.

قلن: مشيئتكم نافذة.

بعدئذ خرجنا نجمع الحطب للموقد الكبير في بيتنا. جلبنا الماء من النهر الذي يجري بين الشجر تحت نوافذنا. اصطدنا ماعزًا جبليًا، وأحضرنا لحمها لنطبخه في أحد القدور النحاسية الغريبة التي وجدناها في حجرة العجائب، التي لا ريب أنها كانت غرفة الطبخ في البيت.

أدَّينا هذا العمل وحدنا، إذ لم تجدِ أي كلمات قلناها في انتزاع الذهبية من الزجاجة الكبيرة التي ليست زجاجة. كن واقفات أمامها، يتأملن ويتأملن جسدهن.

لما استترت الشمس خلف الجبال وجدنا الذهبية نائمات على الأرض، بين الجواهر، والقوارير البلورية، والزهور الحريرية. حملنا الذهبية بين ذراعينا إلى السرير، رأسهن يغفو على كتفنا. بعدها أشعلنا

شمعة، وأحضرنا ورقًا من حجرة المخطوطات، وجلسنا بقرب النافذة لأننا كنا نعلم أننا لن ننام الليلة.

نحن ننظر الآن إلى الأرض والسماء. هذا المشاع من الصخور الجرداء والقمم الجبلية وسناء القمر يبدو كعالم على وشك أن يُولد، عالم ينتظر. نشعر به يطلب علامة منّا، شرارة، أمرًا سماويًا. لا ندري الكلمة التي يريد منّا قولها، ولا أي فتح عظيم تود هذه الأرض أن تشهده. نحن نعلم أنها تنتظر. نظنها تقول لنا إن لديها أعطيات عظيمة تقدّمها لنا. علينا أن نتكلم. علينا أن نمنحها هدفها، المعنى الأسمى في هذا الفراغ العظيم من صخر وسماء.

نحدق ببصرنا إلى الأمام، ننشد من قلبنا الهداية في تلبية هذا النداء الذي ما نطق به صوتٌ، ومع هذا فقد سمعناه. ننظر إلى يدينا. نرى غبار القرون، الغبار الذي أخفى أسرارًا عظيمة، وربما شرًا عظيمًا. ولكنه لا يحرّك أي خوف في قلبنا، لا يحرّك إلا الإجلال له والشفقة.

فلتتنزل علينا الحكمة! ما هذا السر الذي وعاه قلبنا لكنه لا يبوح به لنا، وإن كنا لنحسب نبضاته تجاهد كي تخبرنا؟

الفصل الحادي عشر

أنا أكون. أنا أفكر. أنا أشاء.

يداي... روحي... سمائي... غابتي... هذه الأرض لي...

ما عساي أقول بعد هذا؟ هذه هي الكلمات. هذه هي الإجابة.

أنا أقف هنا على قمة الجبل. أرفع رأسي وأمدّ ذراعيّ. هنا، جسدي وروحي، هنا نهاية رحلة البحث. تمنيت أن أعرف معاني الأشياء. أنا المعنى. تمنيت أن أجد سببًا للوجود. لا أحتاج إلى سبب للوجود، ولا إذن بالوجود من أحد. أنا السبب والإذن.

عيناي هما اللتان تريان، ونظر عينيّ هو ما يهب الأرض جمالها. أذناي هما اللتان تسمعان، وسمع أذنيّ هو ما يمنح العالم أغنيته. عقلي هو الذي يفكر، وحكم عقلي هو السراج الوحيد الذي يمكنه كشف الحقيقة. مشيئتي هي التي تختار، واختيار مشيئتي هو المرسوم الوحيد الذي أطيعه.

كلمات كثيرة أُعطيت لي، بعضها حكيمة، وبعضها باطلة، إلا أن اثنتين فقط هما المقدستان: أنا أشاء.

حيثما كان الدرب الذي أسيره، فإن النجم الهادي في داخلي، النجم الهادي وحجر المغناطيس الذي يدلّني إلى الطريق. لا يشيران إلا نحو اتجاه واحد. يشيران إليّ.

لا علم لديّ إن كانت الأرض التي أقف عليها هي مركز الكون، أو إن كانت ليست سوى ذرة تراب ضائعة في الأبدية. لا علم لدي، ولا يشغل الأمر فكري. لأنني أعلم أي سعادة ممكنة لي على الأرض. سعادتي لا تتطلب هدفًا ساميًا يسوّغها. سعادتي ليست الوسيلة إلى أي غاية. هي النهاية. هي بحد ذاتها الغاية. هي بحد ذاتها الهدف.

ولستُ كذلك الوسيلة إلى أي غاية يريد الآخرون تحقيقها. أنا لست أداة بأيديهم. أنا لست خادمًا مسخّرًا لتلبية احتياجاتهم. أنا لست الضمادة لجروحهم. أنا لست القربان المقدّم في مذابحهم.

أنا فرد. معجزة وجودي هي لي وحدي، لأملكها وأحفظها، معجزتي التي أحرسها، معجزتي التي أستعملها، معجزتي التي أركع أمامها.

أنا لا أتنازل عن كنوزي، ولا أشارك أحدًا بها. لا أقسّم ثروة الروح التي أحويها إلى عملات نحاسية، ثم أذروها في الرياح صدقة لفقراء النفوس. أنا أحرس كنوزي: فكري، مشيئتي، حريّتي. وأعظم هؤلاء هي الحرية.

أنا لا أدين شيئًا لإخوتي، ولا أحصّل الديون منهم. لا أطلب من

أحدهم أن يعيش لأجلي، ولا أعيش لأجل أحدهم. لا أشتهي روح إنسان آخر، وليس لأحد أن يشتهي روحي.

أنا لست عدوًا لإخوتي، ولست مواليهم، ولكن فيّ من الاثنين لهم بقدر ما يستحقون مني. ولا يكفي أن يُولد إخوتي في هذه الدنيا كي يستحقوا حبي. أنا لا أمنح حبي دون سبب، ولا أمنحه لأي عابر سبيل يرجو أن يستحوذ على حبي. أنا أشرّف البشر بحبي. والشرف مكتسب، لا مُهدى.

إن اخترت من بين البشر أخلّاء لي، فلن يكونوا أسيادي ولن يكونوا عبيدي. ولن أتخيّر منهم إلا من طاب لي معشره، وإليهم أصرف حبي واحترامي، ولكن ليس لهم أمري وليس عليهم طاعتي. وإن أردنا ضممنا أيدينا، وإن أحببنا مشى كلٌّ في طريق. في مكنون كل روح برج، وليس لأحد غير صاحبه أن يدخله. يجب على كل فرد أن يحمي برجه، لا يمسه آخر، ولا يدنّسه آخر. فإن أراد أن يشدّ يده بأيدي الآخرين فله ذلك، على أن يكون هذا بعيدًا عن برجه المقدّس.

أما كلمة «نحن» فلا يجوز ذكرها إلا برغبة الفرد، وأن تكون بالمنزلة الثانية منه. لا يجوز أن تكون هذه الكلمة أول ما يُزرع في روح الإنسان، وإلا استحالت وحشًا، وأصل كل شرور الأرض، وسبب تعذيب الإنسان بيد الآخرين. وإلا صارت الكلمة كذبة لا تسعها الكلمات.

كلمة «نحن» كجير يُصبّ على البشر، ولمّا يستقر ويتحوّل حجرًا يسحق كل ما تحته. فكل ما كان أبيض وكل ما كان أسود ضاع في بعثرته الرمادية. إنها الكلمة التي يسلب بها الفاسدون فضيلة الأخيار،

ويسلب بها الضعفاء بأس الأقوياء، ويسلب بها الأغبياء رشد الحكماء.

كيف تتحقق سعادتي إن كانت كل الأيادي، حتى القذرة، تستطيع الوصول إليها؟ ما حكمتي إن كان حتى للحمقى أن يملوا عليّ أفكاري؟ ما حريتي إن كانت كل المخلوقات، حتى الشاذة والعاجزة، أسيادي؟ ما حياتي إن لم أفعل بها غير الانحناء والخضوع والطاعة؟

ليس هذا العبث منهجي بعد الآن.

فررت من وحش «نحن»، كلمة العبودية والسرقة، والتعاسة والكذب والخزي.

أنا الآن أرى وجه إله، وأرفع هذا الإله فوق الأرض، هذا الإله الذي بحث عنه البشر منذ نشأتهم، هذا الإله الذي سيمنحهم السعادة والسلام والكرامة.

هذا الإله، الكلمة الواحدة:

«أنا».

الفصل الثاني عشر

كنت أقرأ أول الكتب التي وجدتها في بيتي حينما رأيت كلمة «أنا». وعندما فهمت هذه الكلمة سقط الكتاب من بين يديّ، وانتحبت، أنا الذي لم يعرف الدموع في حياته. انتحبت ابتهاجًا بالخلاص، وشفقةً على البشرية.

فهمت النعمة التي سمَّيتها لعنتي. فهمت لِمَ كانت ذنوبي وتجاوزاتي أفضل ما فيّ، ولِمَ لم أشعر قط بالخزي بسبب معاصيّ. فهمت أن قرونًا من السلاسل والأسواط لن تقتل روح الإنسان، ولا صوت الحقيقة بداخله.

قرأت كتبًا كثيرة أيامًا كثيرة. ناديت الذهبية فأخبرتها ما قرأت وما تعلّمت. أطالت النظر إليّ، فكانت أولى كلماتها: أنا أحبك.

قلت عندئذ: يا أعز البشر، لا يصحّ أن يكون البشر بلا أسماء. فيما مضى كان لكل إنسان اسم يُعرف به بين جميع الناس. فلنتخيّر لنا أسماءً. قرأت عن رجل عاش قبل آلاف السنين، ومن بين كل الأسماء في هذه الكتب فإن اسمه هو الاسم الذي أريد أن أحمله. أخذ ذلك الرجل نور

الآلهة وجلبها إلى البشر، وعلّم البشر أن يكونوا آلهة. وتعذّب بسبب ما فعل، كما ينبغي لكل حملة النور أن يعانوا. كان اسمه بروميثيوس.

قالت الذهبية: فإنه اسمك منذ اليوم.

قلت: وقرأت عن إلهة كانت أم الأرض، وجميع الآلهة. اسمها غايا. وليكن هذا هو اسمك يا ذهبيتي، فسوف تكونين أمًا لنوع جديد من الآلهة.

قالت الذهبية: وإنه اسمي منذ اليوم.

الآن أتطلّع إلى الأمام، ومستقبلي واضح فيه. قد رأى قديس المحرقة المستقبل يوم اختارني خلفًا له، خلفًا لكل القديسين وكل الشهداء الذين جاؤوا من قبله والذين ماتوا لأجل القضية نفسها، والكلمة نفسها، مهما سمّوا قضيتهم ومهما سمّوا حقيقتهم.

سوف أعيش هنا، في بيتي. سوف أَطعَمُ من الأرض التي أكدح بها بيديّ. سوف أتعلّم أسرارًا كثيرة من كتبي. وخلال السنوات القادمة سوف أعيد بناء أمجاد الماضي، وأمهّد الطريق لأزيد عليها، هذه الأمجاد التي فُتحت لي وأُغلقت إلى الأبد عن إخوتي، لأن عقولهم مصفّدة بعقول أضعفهم وأحمقهم.

علمتُ أن قوة السماء التي اخترعتها كانت معروفة لدى البشر منذ أمد بعيد، وكانوا يسمونها كهرباء. كانت تحرّك أعظم اختراعاتهم. كانت تنير هذا المنزل بضوء يصدر عن هذه الكرات الزجاجية على الجدران. وجدت المحرّك الذي يولّد هذا الضوء. أنوي تعلّم إصلاحه

وإعادة تشغيله. سوف أتعلّم استعمال الأسلاك التي تحمل هذه القوة. ثم سوف أبني حاجزًا من الأسلاك يدور حول منزلي وعلى الطرق التي تؤدي إلى منزلي؛ حاجز أخفّ من خيوط العنكبوت، وأشدّ مناعة من جدار الغرانيت؛ حاجز لا يقدر إخوتي على عبوره أبدًا. فهم لا يملكون ما يحاربونني به إلا أعدادهم الهائلة. أما أنا فلديّ عقلي.

وهنا، على قمة هذا الجبل، والعالم أسفل مني ولا فوقي إلا الشمس، سوف أعيش حقيقتي. غايا حامل بطفلي. سوف ينشأ ابني رجلاً. سوف يتعلم أن يقول «أنا» ويعليها فخرًا. سوف يتعلم أن يمشي مستقيمًا وعلى قدميه. سوف يتعلم تبجيل روحه.

وبعد أن أكون قد قرأت كل الكتب واهتديت إلى منهجي الجديد، وبعد أن أعدّ بيتي وأحرث أرضي، سوف أتسلّل يومًا ما إلى المدينة الملعونة مسقط رأسي لآخر مرة. سوف أذهب إلى صديقي الذي ليس له اسم سوى دولي ٨٨١٨-٤، وكل أولئك الذين يشبهونه، ومؤاخاة ٥٥٠٣-٢ الذي يبكي بلا سبب، وتكافل ٦٣٤٧-٩ الذي يستغيث في منامه، وقلة معهم. سوف أجمع حولي كل الرجال والنساء الذين ما زالت أرواحهم حيّة في أجسادهم، الذين يرزحون تحت نير إخوتهم. سوف يتبعونني وسوف أدلّهم إلى حصني. وفي هذه البرية المجهولة، سوف نكتب أنا وهم، رفاقي المصطفون، وبناة المجد، أول فصل في تاريخ البشر الجديد.

هذه هي بعض الأمور التي من واجبي أداؤها. وبينما أنا واقف هنا على عتبة المجد، ألقي نظرة ورائي لآخر مرة، أتطلّع إلى تاريخ البشر الذي تعلّمته من الكتب، فأتعجّب. البشرية قصة طويلة مبعثها حرية

روح الإنسان. فما الحرية؟ والحرية تكون من ماذا؟ لا تُؤخذ حرية الإنسان منه إلا بيد إنسان آخر. على الإنسان لكي يتحرر أن يتحرر من إخوته أولاً. هذه هي الحرية. هي ولا شيء غيرها.

كان الإنسان بادئ الأمر عبدًا للآلهة. لكنه حطّم قيودهم. ثم كان عبدًا للملوك. لكنه حطّم قيودهم. استعبده مولده وقومه وجنسه. لكنه حطّم قيودهم. أعلن لكل إخوته أن للإنسان حقوقًا لا يستطيع إله ولا ملك ولا إنسان آخر أن يسلبها منه، مهما بلغت أعدادهم، لأن حقه هو حق الكيان الإنساني، ولا حق على الأرض أهم من ذلك. ووقف عند باب الحرية التي أُريقت من أجلها دماء القرون من قبله.

لكنه بعدئذ تخلّى عما كسبه، وهوى إلى ما هو أحقر من بداياته الوحشية.

كيف حصل هذا؟ أي كارثة سلبت عقل بني البشر؟ أي سياط أذلّتهم حتى جثموا في ذل وهوان؟ إنها عبادة كلمة «نحن».

ولمّا قَبِل البشر هذا التسليم انهار تكوين القرون فوقهم، التكوين الذي رفع كل ركن فيه فكرة إنسان واحد، كلٍ في يومه وزمانه، من أغوار روح واحدة، روح وُجدت لتفعل ما بدا لها. ولم يستطع أولئك البشر الذين نجوا - الذين نزعوا من نفوسهم العصيان، وبادروا إلى تطويع حياتهم في خدمة الآخرين، لأنهم لا يملكون ما يمنح حياتهم معنى - أولئك الرجال لم يستطيعوا الاستمرار ولا حفظ ما تلقوه. ولذا فقد زال المنطق واندثرت العلوم والحكمة من الأرض. ولهذا أضاع البشر - بشر ليس لديهم ما يقدّمونه إلا أعدادهم المتكاثرة - خسروا

الأبراج الفولاذية، والسفن الطائرة، وأسلاك القوة؛ كل شيء لم يبتكروه وما كان باستطاعتهم حفظه. وربما، فيما تلت من قرون، وُلد بشر عندهم المنطق والشجاعة التي تخوّلهم إلى استعادة الأشياء التي ضاعت، وربما قد جاء هؤلاء الرجال قبل إنشاء مجالس العلماء. وكانت الإجابة التي تلقّوها مثل الإجابة التي تلقيتها، وربما تكون للأسباب ذاتها.

وإني ما زلت أعجب كيف لم ير البشر في سنوات التغير المنكودة، منذ أحقاب قديمة، أي اتجاه هم قاصدون، فمضوا قدمًا إلى مصايرهم، عمي البصر فاقدي الجسارة. أتعجب، فإنه يشقّ علي أن أتخيل أن بشرًا عرفوا كلمة «أنا» ثم تخلّوا عنها حتى إنهم لا يدركون ما خسروه. ولكن هذه هي حقيقة الأمر، فقد عشت في مدينة الملعونين، وعلمت أي أهوال يسمح البشر بأن تحصل لهم.

ربما كان ثلة من البشر في تلك الأيام ممن كانت لهم بصيرة ثاقبة وروح صافية، فرفضوا التخلي عن تلك الكلمة. أي عذاب اصطلت به أرواحهم، وهم يرون الكارثة تدنو منهم وما كان باستطاعتهم إيقافها! ربما صرخوا، مستنكرين ومنذرين. لكن البشر لم يأبهوا بصراخهم. فحارب أولئك القلة معركة مجرّدة من الأمل، وقضوا ورياتهم ملطّخة بدمائهم. وربما اختاروا الموت لأنهم يعلمون. إلى هؤلاء أبعث سلامي عبر القرون، ومعها شفقتي.

تلك هي رايتهم التي أحملها في يدي. ليتني أستطيع إخبارهم أن اليأس الذي سكن قلوبهم لم يكن ختام الحرب، وأن لياليهم المظلمة لم تكن عديمة الأمل. لأن المعركة التي خسروها لا يمكن أن تضيع. وأن الذي ماتوا لأجل الدفاع عنه لا يمكن أن يموت. ومن أسدال الظلام،

ومن أعماق الخزي الذي يسلّط البشر آلامه على الآخرين، سوف تظلّ روح الإنسان الفرد حيّة على الأرض. قد تنام لكنها سوف تستيقظ يومًا. قد تُصفّد بالسلاسل لكنها ستكسرها يومًا. والإنسان يعيش في النهاية. الإنسان وليس البشر.

هنا، على قمة هذا الجبل، سوف أبني وأبنائي ورفاقي المصطفون أرضنا الجديدة وحصننا. وسوف تكون كقلب الأرض؛ مخفي وضائع في البداية، لكنه ينبض وتتسارع نبضاته كل يوم. وسوف تبلغ أخباره كل أذن في كل أرجاء الأرض. وسوف تكون دروب الأرض شرايين تحمل إلى عتبة بيتي أفضل الدماء في العالم. وسوف يسمع عنه كل إخوتي، وكل مجالس إخوتي، فيقفون عاجزين عن مقاومتي. وسوف يأتي اليوم الذي أحرّر فيه الأرض من أغلالها، وأهدّم مدن العبيد، وسوف يكون بيتي عاصمة عالم يعيش فيه كل إنسان حريته.

ولأجل ذلك اليوم سوف أقاتل، ومعي أبنائي ورفاقي المصطفون. لأجل حرية الإنسان. ولأجل حقوقه. ولأجل حياته. ولأجل كرامته.

وهنا، على بوابات حصني، سوف أنقش على الحجر الكلمة التي ستكون منارتي ورايتي. الكلمة التي لن تموت وإن قضينا كلنا في المعركة. الكلمة التي لا يمكن أن تفنى من هذه الأرض، لأنها محورها وأساسها وسرّ عظمتها.

الكلمة المقدّسة:

الذات

ترتيلة

عندما يذوب الواحد في الكل .فوحدنا كلمة مخيفة .لذلك قررنا أن لا نكون وحدنا، أن نتخلى عن الخوف الذي يطوقنا في قاعات النوم الفسيحة، ويندس في جنبات الشوارع، الخوف الذي يمشي في المدينة، بلا اسم، بلا شكل، ومع هذا فإن كل من حولنا يحسونه ولا يجرؤون على الكلام عنه.

من قلب المجتمع واعتراضاً على سيره بالطريقة التي يتحكم فيها المجلس الأعلى بكل شيء .اكتشفنا مصادفة نفقاً تحت الأرض، جربنا فيه العزلة، الصمت، السكون، الظلام، أفكارنا كبرت، تعلمنا، كسرنا المجهول وغرقنا فيه .ثم هربنا بعد أن ارتكبنا الجريمة العظمى، حين لمسنا الضوء وعرفناه، اتهمونا بالخيانة، وقرروا أن يحرقونا، لكننا هربنا إلى الخارج، حيث الغابة، حيث أيقظنا شعاع شمس وقع على وجهنا، أردنا أن نهب واقفين، لكننا تذكرنا فجأة أن الجرس لم يقرع، وأن لا أجراس هنا .

«أتوقع أن تظلّ كتب آيان راند حية طالما أن الحضارات باقية .وربما تنجو من عصور مظلمة أخرى، إن جاءت، ولو وقعت، كما نجا« المنطق »لأرسطو.»

لينارد بيكوف.

9 782844 097620

Cover Design by
Hany Saleh

@darathar
#رواية_ترتيلة